مشاريع البادرة الأولى
FIRST INITIATIVE PROJECTS
روافد المعرفة

النظرات والعبرات

للكاتب

مصطفى المنفلوطي

مؤسس المشروع : د.طلال المكي

رئيسة المشروع: سهام الشريف

نائبة رئيسة المشروع: دعاء بامردوف

نائبة رئيسة المشروع: شهد ياسين

رئيس لجنة الدراسات: ابراهيم عبدالعزيز المعثم

نائبة رئيس لجنة الدراسات: ملاك ابراهيم العنزى

مشرفة لجنة التلخيص: عائشة بوكار عثمان بوكار

نائبة مشرفة لجنة التلخيص: منيرة عبدالرحمن أمين

مشرفة لجنة التلخيص الشهرى: صباح فهد عجيمى

رئيسة لجنة الكتابة: وديان سعد اللقمانى

رئيسة لجنة تقنية المعلومات: امواج محمد نوح

رئيسة لجنة التصميم والتنسيق: مروج القرمانى

رئيسة لجنة التدقيق ومراجعة الروايات: زينب الرمضان

مشرفة القروب: عائشة بوكار عثمان بوكار
نائبة مشرفة القروب: منيرة عبدالرحمن أمين

أسماء الملخصين:

نسيمة خميس سعد المهرى
سارة عبدالله آل مهندر
أحلام على بخيتار خياط
نورة فرج الدوسرى
هند مرزوق سفران الحربى

تدقيق املائى ونحوى: أسيل محمود مغمور

تنسيق الكتاب واخراجه: أسرار حسين المنتشري

الفهرس

الفهرس	**4**
المقدمة	12
الغد	13
الكأس الأولى	13
الدفين الصغير	14
أين الفضيلة!	16
الغني والفقير	17
مدينة السعادة	18
أيها المحزون	19
إلى الدير	19
الرحمة	20
رسالة غفران	21
عبرة الدهر	22
أفسدك قومك	23
الصدق والكذب	24

أيها السجين	25
النظامون	26
الحرية	27
عبرة الهجرة	27
الإنصاف	28
المدينة الغريبة	28
يوم الحساب	29
الشعرة البيضاء	30
الصياد	31
الانتحار	31
الجمال	32
الكذب	32
غرفة الاحزان	33
الشرف	35
الحب والزواج	36
الإسلام والمسيحية	37
أهناء أم عزاء	39

الزوجتان	40
في سبيل الاحسان	42
فوضى الاحسان	42
أسوأ الاحسان	43
تنظيم الاحسان	43
أدب المناظر	44
الإحسان في الزواج	45
لاهمجية في الإسلام	47
البخيل	48
البعوض والانسان	49
الجزع	50
النبوغ	51
البائسات	52
البيان	53
السريرة	55
زيدوعمرو	56
أبو الشمقمق	57

دورة الفلك	59
تأبين فولتير	60
العلماء والجهلاء	63
الرجل والمرأة	64
الدعوة	65
الحياة الذاتية	66
العبرات	68
دمعة على الاسلام	68
السياسة	69
خداع العناوين	69
الإغراق	69
اللقيطة	70
الصندوق	70
الفناء العربي	70
التوبة	71
الحسد	71
الوفاء	71

خبايا الزوايا	71
القمار	72
الأوصياء	72
العام الجديد	73
سحر البيان	73
الانقلاب	73
الكبرياء	74
الانتحار	74
الحياة الشعرية	74
رباعيات الخيام	75
إلى تولستوي	75
وارحمتاه	75
خطبة الحرب	75
الإنسانية العامة	76
أدوار الشعر العربي	76
حوانيت الاعراض	76
الرثاء	77

الشعر	78
الشهيدتان	79
الدعاء	80
الكوخ والقصر	81
على سرير الموت الخطبة الصامته	82
الخطبة الصامته	82
اللفظ والمعنى	82
الآداب العامة	86
المؤتمر الإسلامي	88
الضمير	91
مدرسة الغرام	92
امس واليوم	94
المرقص	98
الماضي والحاضر	100
الشيخوخة المتمردة	102
عجائز بوشنج	105
الأجواء	106

كتاب في التقاضي	109
كتاب مقاطعة	109
كتاب تهكم	110
كتاب يأس	110
الجرائد	112
عبدالحميد	112
الشهرة	112
فكاهة	113
الأقسام	113
الدين	114
الحقيقة	114
الانتقاد	114
الحزم	115
الألم	115
الغفران	115
الدعوى	116
الدين والوطن	116

الحلم	110
الأدب	116
الأخلاق	116
الاعتدال	117
البر	117
الشقاء	117
الفتاة والبيت	118
البعث	118
الأربعون	123
العبرات مجموعة روايات قصيرة	125
اليتيم	125
الحجاب	129
الهاوية	133
العقاب	136
الخاتمة	141

مقدمة روافد المعرفة :

الحمدلله واسع الفضل والعطاء والصلاة والسلام على من لا نبيه بعده، نبيينا محمد ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين.

إنّ عمر الإنسان الحقيقي لا يقاس بعدد السنوات التي عاشها، إنما يقاس بعدد التجارب التي مرّ بها والأثر الذي خلفه من بعده؛ فهذا الكتاب الذي بين يديك إنما هو ملخص لتجاربٍ مرّ بها الكاتب الأديبي الأستاذ (مصطفى لطفي المنفلوطي) إذ كانت وسيلته الأولى لحب الأدب والتعبير عنه هو رؤيته للجمال في كل ما حوله من أشياء حسية ومعنوية فكان ذا عين جميلة وقلب جميل.

مرّ في حياته بتجارب قاسية وتجارب فيها من العبر ما الله به عليم، فضمد جراحه بتدوين هذه التجارب لمن بعده حتى لا يقعوا فيما وقع فيه لذلك سمى كتابه بـ(نظرات وعبرات).

أترك لك رحلة التبحر في ملخص هذه التجارب بين يديك.

قراءة ممتعة.

الغد:

الغد شبح مبهم يتراءى للناظر من مكان بعيد، فربما كان ملكًا رحيمًا، وربما كان شيطانًا رجيمًا، بل ربما كان سحابةً سوداء إذا هبّت عليها ريح باردة حلّلت أجزاءها، وبعثرت ذراتها، فأصبحت كأنما هي عدم من الإعدام التي لم يسبق وجودها.

الغد صدر مملوء بالأسرار الغزار، تحوم حوله البصائر، وتتسقطه العقول، وتستدرجه الأنظار، فلا يبوح بسر من أسراره إلّا اذا جاءت الصخرة بالماء الزلال.

ذلل الإنسان كل عقبة في هذا العالم، حتى كاد يسمع حديث النفس ودبيب المنى، واخترق بذكائه كل حجاب، وفتح كل باب، ولكنه سقط أمام باب الغد عاجزًا مقهورًا لا يجرؤ على فتحه، بل لا يجسر على قرعه؛ لأنه باب الله، واللهُ لا يطلع على غيبه أحدًا.

و ليست حياة المرء إلا أمانيا إذا هي ضاعت فالحياة على الأثر.

الكأس الأولى:

كان لي صديق أحبّه وأحبّ منه سلامة قلبه وصفاء سريرته وصدقه ووفاءه في حالي، بُعده وقربه، وغضبه وحلمه، وسخطه ورضاه، ففرق الدهر بيني وبينه فراق حياة لا فراق ممات.

علقت حبالي بحباله حقبة من الزمن عرفته فيها وعرفني، ثم سلك سبيلًا غير سبيله فأنكرته وأنكرني، حتى ما أمر ببابه؛ لأن الكأس التي علق بها لم تدع في قلبه فراغًا يسع غيرها وغير العالقين بها.

ثم لم أعد أعلم من أمره بعد ذلك شيئًا! لأن حياة المدمنين حياة متشابه متماثلة، لا فرق بين صبحها ومسائها وأمسها وغدها.

لذلك لم يشغل هذا المسكين محلًا من قلبي إلّا بعد أن سكنت دورته، وهدأت حركته، فلم أعد أراه معربدًا في الحانات، ولا مطرحًا في مدراج الطرق، ولا معتقلًا في أيدي الشرط. هناك سألت عنه فقيل لي: مريض، فلم أعجب لشيء، كنت أعد له الأيّام والأعوام، كما يعدّ الفلكي الساعات والدقائق لكسوف الشمس واصطدام الكواكب.

دخلت منزله فلم أجد المنزل ولا صاحبه؛ لأني لم أجد فيه ذلك الروح العالي الذي كان يرفرف بأجنحته في غرفه وقاعاته.

ثم تقدمت نحو سرير المرض فكشفت كلته البالية عن خيال لم يبق منه إلا إهاب لاصق بعظم ناحل؛ فقلت: أيها الخيال الشاخص ببصره إلى السماء، قد كان لي في إهابك هذا صديق محبوب فهل لك أن تدلّني عليه؟ فبعد لأي ما حرك شفتيه وقال: هل أسمع صوت فلان؟ قلت: نعم، ممّ تشكو؟ فزفر زفرة كادت تتساقط لها أضلاعه وأجاب: أشكو الكأس الأولى، قلت: أيّ كأس تريد؟ قال: أريد الكأس التي أودعتها مالي وعقلي وصحتي وشرفي، وها أنا اليوم أودعتها حياتي، قلت: قد كنت نصحتك ووعظتك، وأنذرتك بهذا المصير الذي صرت إليه فما أجديت عليك شيئًا، قال: ما كنت تعلم حين نصحتني من غوائل هذا العيش النكد أكثر مما أعلم، ولكنني كنت قد شربت الكأس الأولى فخرج الأمر من يدي.

كل كأس شربتها جنتها عليّ الكأس الأولى، أمّا هي فلم يجنها عليّ غير ضعفي وقصور عقلي عن إدراك الأصدقاء والخلطاء.

وغلبت على أمري كما يغلب على أمره كل مخدوع بمثل ما خدعت به؛ ولولا الكأس الأولى ما هلكت، ولا شكوت الذي شكوت، ولولاها ما عافني الأصدقاء، ولا زهد فيّ الأقرباء، فكن أنتَ وحدك صديق السرّاء والضرّاء.

فعاهدته على ذلك، ثم تركته في حالة:

تصمّ السميع وتعمى البصير ويسأل من مثلها العافية

الدفين الصغير:

الآن، نفضت يدي من تراب قبرك يا بني، وعدت إلى منزلي كما يعود القائد المنكسر من ساحة الحرب، لا أملك إلّا دمعة لا أستطيع إرسالها، وزفرة لا أستطيع تصعيدها.

لقد كان خيرًا لي ولك يا بني أن أكِلَ إلى الله أمرك في شفائك ومرضك، وحياتك وموتك، وألّا يكون آخر عهدك بي يوم وداعك لهذه الدنيا تلك الآلام التي أجشمك إيّاها؛ فلقد أصبحت أعتقد أنّني كنت عونًا للقضاء عليك وأنّ كأس المنية التي

كان يحملها لك القدر في يده، لم تكن أمرّ مذاقًا في فمك من قارورة الدواء التي كنت أحملها لك في يدي.

لقد طال عليّ الليل حتى مللته، ولكنّني لا أسأل الله أن ينفرج لي سواده عن بياض النهار؛ لأنّ الفجيعة التي فجعتها بفقدك لم تبق بين جنبي بقية أقوى بها على رؤية أثر من آثار حياتك، فليت الليل باق حتى أرى وجه النهار، بل ليت النهار يأتي، فقد مللت الظلام.

لقد افتلذ كل منكم يا بني من كبدي فلذة فأصبحت هذه الكبد الخرفاء مزقًا مبعثرة في زوايا القبور، ولم يبق لي منها إلّا دماء قليل لا أحسبه باقيًا على الدهر، ولا أحسب الدهر تاركه دون أن يذهب به كما ذهب بأخواته من قبل.

لماذا ذهبتم يا بني بعد ما جئتم؟ ولماذا جئتم إن كنتم تعلمون أنّكم لا تقيمون؟

يا بني، إن قدّر الله لكم أن تتلاقوا في روضة من رياض الجنة، أو على شاطئ من غدرانها، أو تحت ظلال قصر من قصورها؛ فاذكروني مثل ما أذكركم، وقفوا بين يديّ ربكم واسألوه أن يفرّج عن هذا الرجل المسكين.

فعسى أن يستجيب الله من دعائكم ما لم يستجب من دعائي فيرفع هذا الستار بيني وبينكم فنلتقي كما كنا. مناجاة القمر... أيها القمر المنير:

إنّك أنرت الأرضَ، وهادها ونجادها، وسهلها ووعرها، وعامرها وغامرها؛ فهل لك أن تشرق في نفسي فتنير ظلمتها، وتبدد ما أظلمها من سحب الهموم والأحزان؟

أيها القمر المنير،

إنّ بيني وبينك شبهًا واتصالًا؛ أنتَ وحيد في سمائك، وأنا وحيد في أرضي.

أيها القمر المنير،

كان لي حبيب يملأ نفسي نورًا، وقلبي لذّة وسرورًا، وطالما كنت أناجيه ويناجيني بين سمعك وبصرك، وقد فرق الدهر بيني وبينه؛ فهل لك أن تحدثني عنه، وتكشف لي عن مكان وجوده؟ فربما كان ينظر إليك نظري، ويناجيك مناجاتي، ويرجوك رجائي... فابقَ في مكانك طويلًا تطل وقفتنا، ويدوم اجتماعنا.

آه... لقد طلع الفجر، ففارقني مؤنسي، وارتحل عنّي صديقي، فمتى تنقضي وحشة النهار، ويقبل إليّ أُنس الظلام!

أين الفضيلة؟

قرأت في بعض الروايات أنّ فتى قضى حقبة من دهره مولعًا بحب فتاة خيالية لم يرها مرة واحدة في حياته، وإنّما تخيّل في ذهنه صورة ألّفها من شتى المحاسن ومتفرقاتها في صورة البشر، فلمّا استقرت في مخيلته تجسمت في عينيه فرآها فأحبها حبًا ملَكَ عليه قلبه وحال بينه وبين نفسه وذهب به كل مذهب؛ فأنشأ يفتش عنها بين سمع الأرض وبصرها أعوامًا طوالًا حتى وجدها.

لا أستطيع أن أكذّب هذه القصة لأني أنا ذلك الفتى بعينه، لا فرق بيني وبينه إلّا أنّه يسمي ضالّته الفتاة وأسميها الفضيلة، وأنّه فتّش عنها فوجدها، وفتّشت عنها حتى عييت بأمرها فما وجدت لها سبيلًا.

فتشت عنها في كل مكان أعلم أنّه تربتها وموطنها، فلم أعثر بها؛ فليت شعري هل أجدها في الحانات والمواخير، أو في مغارات اللصوص، أو بين جدران السجون.

فالفضيلة لا تزال تجد في صدور الكثير من الناس صدرًا رحبًا، وموردًا عذبًا، إني لا أنكر وجود الفضيلة، ولكنّي أجهل مكانها، فقد عقد رياء الناس أمام عيني سحابة سوداء أظلم لها بصري، حتى ما أجد في صفحة السماء نجمًا لامعًا، ولا كوكبًا طالعًا.

كل الناس يدعي الفضيلة وينتحلها، وكلهم يلبس لباسها ويرتدي رداءها ويعدّ لها عدتها من منظر يستهوي الأذكياء والأغنياء، ومظهر يخدع أسوأ الناس بالناس ظنًّا، فمن لي بالوصول إليها في هذا الظلام الحالك، والليل الأليل؟

إن كان صحيحًا ما يتحدث به الناس من سعادة الحياة وطيبها وغبطتها ونعيمها؛ فسعادتي فيها أن أعثر في طريقي في يوم من أيام حياتي بصديق يصدّقني الودّ وأصدّقه.

شريف الحب فلا يحب غير الفضيلة، ولا يبغض غير الرذيلة.

لقد سمج وجه الرذيلة في عيني، وثقل حديثها في مسمعي، حتى أصبحت أتمنّى أن أعيش بلا قلب فلا أشعر بخير الحياة وشرّها وسرورها وحزنها.

ولولا بُنيّات صغار يفقدون بفقدي طيب العيش ونعيمه لفررت من هذا العالم الناطق إلى ذلك العالم الصامت، فأجد من الأنس به والسكون إليه ما وجده الذي يقول:

عوى الذئب فاستأنست بالذئب إذ عوى وصوت إنسان فكدت أطير

الغني و الفقير:

ما أظلم الأقوياء من بني الإنسان، و ما أقسى قلوبهم، ينام أحدهم ملء جفنيه على فراشه الوثير، ولا يقلقه مضجعه، إنّه يسمع أنين جاره، و هو يرعد بردًا و قرًا، ويجلس أمام مائدة حافلة بصنوف الطعام قديده و شواءه، حلوه وحامضه، ولا ينغص عليه شهوة عمله. إنّ بين أقربائه و ذوي رحمة من تتواثب أحشاؤه شوقًا إلى فتاة تلك المائدة و يسيل لعابه تلهفًا على فضلاتها. بل إنّ بينهم من لا تخالط الرحمة قلبه، ولا يعقد الحياء لسانه، فيظل يسرد على مسمع الفقير أحاديث نعمته، وربما استعان به على عد ما تشتمل عليه خزائنه من الذهب وصناديقه من الجوهر وغرفه من الأثاث والريش؛ ليكسر قلبه وينغصّ عليه عيشه ويبغض إليه حياته، وكأنه يقول له في كل كلمة من كلماته وحركة من حركاته: أنا سعيد لأني غني، وأنتَ شقي لأنك فقير.

لا أستطيع أن أتصور أنّ الإنسان إنسان حتى أراه محسنًا، وإنّي أرى الناس ثلاثة: رجل يحسن إلى غيره ليتخذ إحسانه إليه سبيلًا إلى الإحسان إلى نفسه، وهو المستبد الجبار، ورجل يحسن إلى نفسه ولا يحسن إلى غيره وهو الشره المتكالب، ورجل لا يحسن إلى نفسه ولا إلى غيره وهو البخيل الأحمق الذي يجيع بطنه ليشبع صندوقه، وأمَا الرابع: وهو الذي يحسن إلى غيره ويحسن إلى نفسه فلا أعلم له مكانًا، ولا أجد إليه سبيلًا، وأحسب أنّه هو الذي كان يفتش عنه الفيلسوف اليوناني "ديوجين الكلبي" حينما سئل؛ ما يصنع بمصباحه ؟ و كان يدور به في بياض النهار، فقال: أفتّش عن إنسان.

مدينة السعادة:

رأيت فيما يرى النائم أنني أمشي في قفرة جرداء قد انبسطت رمالها على سطحها متجعدة تجعّد الأمواج المتكسّرة على سطح القاموس المحيط وكانت الشمس قد طفلت للإياب فلم أر في بطحائها ظلًّا غير ظلّي المستطيل الذي رسمته يد الشمس فأخطأتْ في تصويره كأنما حسبتني آدم أبا البشر فأوسعتني طولًا ورسمتني ميلًا.

أنشأت أمشي لا أعرف لي مذهبًا ولا مضطربًا، وأنّى يكون ذلك في صحراء قد تشابهت مسالكها... ولم أزل كذلك حتى شعرت بأنّ الظّلام قد بدا ينفض صبغته؛ رميت بطرفي فرأيت بين الصخور المبعثرة في سفح الجبل صخرةً بيضاء ناعمة الملمس، فاضطجعت عليها وأنا أتمثّل بقول أبي العلاء:

ضجعة الموت رقدة يستريح الـ جسم فيها والعيش مثل السهاد

استيقظت أنا والشمس من مرقدينا على صوت تلك الأسرة الطاهرة الكريمة؛ تصلّي إلى الله تعالى صلاة الخاشعين المتبتلين وتدعو وهي مصطفّة صفًا واحدًا أن ييسّر الله لها عسرها... فلمّا فرغنا من الصلاة التفتُّ إلى صاحب البيت وقلت له: أراكم تتعبدون، فمن تعبدون؟ وتصلون، فمن الذي تدعون؟ قال: نعبد الله خالق هذه الكائنات ومدبّرها، قلت: هل رأيتموه حتى عرفتموه؟ قال: نعم، رأيناه في آثاره ومصنوعاته... فرغنا من الحديث وعرضت على الشيخ أن يزيرني في المدينة. فانحدر بي إليها؛ فرأيت شوارعها فسيحة منتظمة ومنازلها متفرقة غير متلاصقة، قد أحاطت بكل منزل منها حديقة زاهرة، ورأيت سكّانها مكبّين على أعمالهم، مجدّين في شؤونهم... سألت الشيخ: ألا يوجد فيكم غنيّ وفقير، سيّد ومَسُود؟ قال: لا يا سيدي، حسب الرجل منّا بيت يؤويه، ومزرعة تقيته ودابة تحمل أثقاله، ثم لا شأن له بعد هذا فيما سوى ذلك...

إلى أن فرغنا من الطواف بالمدينة ووصلنا إلى المنزل الذي خرجنا منه، فاستقبلنا أهله بالبشر والترحاب واستقبلوا شيخهم بالتقبيل والعناق...

تلك هي "مدينة السعادة" التي يعيش أهلها سعداء لا يشكون همًّا؛ لأنّهم قانعون، ولا يمسكون في أنفسهم حقدًا لأنّهم متساوون، ولا يستشعرون خوفاً لأنهم آمنون.

أيُّها المحزون،،،

أنت حزين لأن نجمًا زاهرًا من الأمل كان يتراءى لك في سماء حياتك فيملأ عينيك نورًا... وقلبك سرورًت، و ما هي الا كرة الطرف إن افتقدته، فما وجدته... ولو أنّك أجملت في أملك لما غلوت في حزنك، ولو أنت أنعمت نظرك فيما تراءى لك لرأيت برقًا خاطفًا.. ما تظنه نجمًا زاهرًا، وهنالك لا يبهرك طلوعه، فلا يفجعك أفوله.

لولا السرور في ساعة الميلاد ما كان البكاء في ساعة الموت؛ ولو الوثوق بدوام الغنى ما كان الجزع من الفقر، و لولا فرحة التلاق ما كانت ترحه الفراق.

إلى الدير...

مسكين ذلك الفتى الذي رأيته صباح أمس منزويًا في ركن من الأركان في أحد الأندية وقد ظللت جبينه الوضّاح سحابة سوداء من الحزن، وانحنى على نفسه كأنّما هو يشعر أن قلبه يتنزّى في صدره وأنه يحاول الفرار منه وهو يعطف عليه ليمسكه بين جوانحه، ولو أنّه أراد بنفسه خيرًا لتركه وشأنه يمضي في سبيله حيث شاء، فبعدًا لقلب لا يسكن عن الخفقان ولا يفيق من الهموم والأحزان.

سألته: ما بالك أيّها الصديق؟ قال: لا شيء، ثم أصغى إلى كلماتي واستخذى لها وأنشأ يحدثني حديثًا تمازجه العبارات وتقطّعه الزفرات، يقول: زوجني أبي منذ سنين من زوجة جاهلة غبية لا تفهم معنى الزواج إلّا فيه قضاء لبانتها وترفيه عيشها وإرضاء نفسها وهو يحسب أنّه أحسن إليّ بسليلة المجد، وربيبة النعمة، ومالكة الدور، وساكنة القصور... ولم تكن ممن أنعم الله عليهن بنعمة الجمال! وليتها كانت تغفل أمري وتتركني وشأني فأستطيع أن أتنسّاها وأعدّ نفسي من العذاب تخيلًا وتقديرًا... وبعد، فقد رأيت أنّ العيش معها مستحيل.. فلم أرَ بدًّا من فراقها؛ ففارقتها وما على وجه الأرض شيء أبغض إليّ من المجد.. قلت: ولكنني لا أزال أراك حزينًا حتى الساعة! قال: نعم، لأنّني نفضت يدي من الزوجة الجاهلة.. ورحت أفتّش عن الزوجة المتعلمة وقلت: ليكونّن لي من الشأن في الزواج الثاني ما لم يكن لي في الزواج الأول... بعد ما صار إليّ الخيار.

فإذا المرأة الجديدة من جميع وجوهها... فوقعت في نفسي أحسن موقع.

خطبتُ الفتاةَ إلى أبيها فما لبث أن أخطبني فامتلأ قلبي فرحًا وسرورًا. وقد أعددت للبناء بها عدته، ولم يبقَ بيني وبينه إلّا يوم واحد، إذا بالبريد قد هجم عليّ بهذا الكتاب، فهاكهه فاقرأْه فإنّ فيه بقية قصتي، وسرّ نكبتي.

وكل ما استطعت أن أقول: ماذا يعنيك من أمر فتاة عاهر بعد ما انكشفت لك سرها، وظهرت لك حقيقتها؟ ولو كنت مكانك لعدلت عن الحزن على فوتها، إلى الاستغفار من حبها، وحمدًا لله على ما ألهَم من الصواب الرأي فيها؛ فإنّي لا أرى لك إلّا أن تترهّب وتتعزّب وأن تقول ما قاله (هملت)... وقد زهدَ في الزواج بعد ما عرفَ حقيقة المرأة وأدرك خبيئة نفسها: (إلى الدير... إلى الدير).

الرحمة:

سأكون في هذه المرّة شاعرًا بلا قافية ولا بحر؛ لأنّي أريد أن أخاطب القلبَ وجهًا لوجه، ولا سبيل إلى ذلك إلّا سبيل الشعر.

أيّها الرجل السعيد: كن رحيمًا، أشعِر قلبك الرحمة؛ ليكن قلبك الرحمة بعينها.

إنّ منظرَ الشاكر منظرٌ جميل جذاب... ونغمة ثنائه وحمده أوقع في السمع من العود في هزجه ورمله وأعذب من نغمات معبد في الثقيل الأول.

إنّ اليدَ التي تصون الدموع أفضل من اليد التي تريق الدماء، والتي تشرح الصدور أشرف من التي تبقر البطون، فالمحسن أفضل من القائد وأشرف من المجاهد، وكم بين من يحيي الميت. ومن يميت الحي.

وإذا وجد الحكيم بين جوانح الإنسان ضالّته من القلب الرحيم؛ وجد المجتمع ضالته من السعادة والهناءة.

الفرد هو المجتمع... وإنما يتعدد بتعدد الصور... أتدري متى يكون الإنسان إنساناً؟ متى عرف هذه الحقيقة حق المعرفة وأشعرها نفسه..

وجماع القول أنّه لا يمكن أن تجتمع رحمة الرحماء وشقوة الأشقياء في مكان واحد؛ إلّا إذا أمكن أن يجتمع في بقعة واحدة الملك الرحيم والشيطان الرجيم.

أيّها السعداء، أحسنوا إلى البائسين والفقراء، وامسحوا دموع الأشقياء، وارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء.

رسالة الغفران:

غفوت إغفاءةً طويلة لا علم لي بمداها، لا بما وقع لي فيها، ثمّ صحوت فرأيت نفسي في صحراء مدّ البصر مكتظة بأنواع من الخلق لا أحصيهم عددًا، فعلمت أنّي بعثت، وأنّه يوم القيامة، فساوَرَني من الهمّ ما ساوَرَني حين ذكرت أنّ مقداره ألف سنة من سني القيامة، وقلت: من لي بالصبر على موقف يهلك فيه صاحبه ظمأً وجوعًا، و يحترق تحت أشعّة الشمس ليس بينه وبينها إلّا قيد ظفر. فزيّنتْ لي نفسي الكاذبة أن أذهبَ إلى رضوان خازن الجنان، وكنت أحمل شهادة التوبة في يدي لأسترحمه وألتمس منه الإذنَ بالدخول قبل انفضاض المحشر، فما أبَه لي ولا فهِم كلمة مما أقول، فانصرفت عنه إلى خازن آخر اسمه زفر؛ فكان شأني مع صاحبه، إلّا أنّه كان أرق منه وألين جانبًا، فأشار عليّ بالذهاب إلى النبي الذي أتبعه، وأفهمني أنّ الأمر موكول إليه.

فبينا أتخلل الصفوف، وأزاحم الوقوف، إذ وقع بصري على حلقة من الناس تحيط بشيخ هرم، فإذا هو الشيخ أبوعلي الفارسي النحوي، وإذا بالمحتفّين به جماعة من شعراء العرب كلّهم يخاصمه وكلهم ينقم عليه؛ فدفعني الفضول إلى النزول في ميدانهم، حتى أدركت شؤم ما فعلت، وعلمت أنّ شهادة التوبة قد سقطت من يدي في ذلك المعترك، فقلت: قبّح الله الشعرَ والإعراب واللغةَ والآداب؛ إنها شؤم الآخرة والأولى.

وقفت أحير لا أدري ما آخذ، وما أدع! حتى رميت بطرفي فإذا بأمير المؤمنين علي بن أبي طالب في لفيف من العترة الطاهرة النبوية فدلفت إليه وأبثثته أمري وأمر الشهادة المفقودة فقال: لا عليك، ألك شهادة بالتوبة؟ قلت: نعم، فنودي بشهودي فشهدوا بتوبتي، فقال: تريّث قليلًا حتى تمر فاطمة بنت محمد فنسألها في أمرك، فهي تمت إلى أبيها بما لا نمت به، وإذا بمنادٍ ينادي أن غضّوا أبصاركم يا أهل الموقف حتى تعبر فاطمة بنت محمد صلّى الله عليه وسلم، فهرعتُ إليها، وتقدم من وعدني بسؤالها في أمري، فأنجزَ وعدَه حتى وافينا محمدًا صلّى الله عليه وسلّم، واقفًا لشهادة القضاء، فقصّت عليه فاطمة ما علمتْ من أمري، فراجع الديوان الأعظم فوجد اسمي في التائبين فشفع لي فعدت فرحًا مستبشرًا، فأمرتْ فاطمةُ جاريةً من جواريها أن تعبر

معي عقبةَ الصراط وجازت بي الصراط كالبرق الخاطف، حتى صرت إلى باب الجنة، فرمتُ الدخول فوقف رضوان في وجهي وقال: أين جوازك؟ فبعلت بالأمر، فسمع إبراهيم عليه السلام حواري فجذبني جذبة حصّلني بها الجنة وصاحبي ينظر إليّ شزرًا فدخلت، فرأيت ما لا عينٌ رأت، ولا أذنٌ سمعت، ولا خطر على قلب بشر!

وانصرفنا إلى ما أعدّ الله لنا من ملك كبير وجنة وحرير. وحور وولدان، كأنّهم الياقوت والمرجان، فحمدنا الله الذي هدانا لهذا، وما كنّا لنهتدي لولا أن هدانا الله.

عَبرة الدهر:

بنى فلانٌ في روضة من بساتينه الزاهرة قصرًا فخمًا يتلألأ في تلك البقعة الخضراء تلألؤ الكوكب المنير في البقعة الزرقاء..

شاده مرمرًا وجلله كلسا فللطير في ذراه وكور

ولم يدع ريشة لمصور ولا ليقة لرسام إلّا أجراها في سقوفه وجدرانه وطاقاته وأركانه.

في ليلة من ليالي الشتاء حالكة الجلباب، غدافية الإهاب، أفاق صاحبُ القصر من غشيته فتحرك في سريره وفتح عينيه فلم يرَ أمامه غير خادمَه "بلال" وهو خصى أسود من ذوي الأسنان، ربّاه صغيرًا وكفله كبيرًا، وكان يجمع بين فضيلتيّ الذكاء والوفاء، فأشار إليه إشارةَ الواله المتلهّف أن يأتيَه بجرعة ماء، فجاء بها... فسأله: في أيّ ساعة من ساعات الليل نحن يا بلال؟ فأجابه: نحن في الهزيع الأخير يا سيدي، فقال: ألم تعد سيّدتك إلى الآن؟ قال: لا، فامتعض امتعاضًا شديدًا وزفر زفرة كادت تخترق حجاب قلبه، ثم أنشأ يتكلّم كأنما يحدّث نفسه ويقول: إنّها تعلم أنّي مريض وأنّي في حاجة إلى من يسهر بجانبي ويتعهد أمري! ما زال يحدّث نفسه بمثل هذه الأحاديث، حتى هاج ساكنه واضطربت أعصابه؛ فعاودته الحمّى وغلى رأسه بنارها غليان القدر بمائها فسقط على فراشه ساعة تجرع فيها من كأس الموت جرعًا مريرة، بيد أنّه لشقائه لم يأتِ على الجرعة الأخيرة منها.

أخذ يسمع كلمات الخادم حتى اضطرب اضطرابًا شديدًا وسقط عن كرسيّه وهو يقول: أشهدُ أنّي من الأشقياء. وما زال في غشيته تلك حتى صحا صحوة الموت وفتح عينيه فرأى بين يديه هذا المنظر المحزن المؤلم.

رأى ولده لاهيًا بمحادثة فتاة من فتيات القصر، ورأى زوجته تضاحك تربًا من أترابها وتغمزها بطرفها أن قد حان حينه ودنا أجله، ورأى صديقه أو ولي عهده يأمر في القصر وينهى، ويتصرّف تصرّف السيّد المطاع، ورأى نفسه يعالج سكرات الموت، ويعدّ عدّته إلى الانتقال من القصر إلى القبر، وهنا سمع كأن هاتفًا يهتف به من السماء ويقول: أيّها الرجل، لو وفيتَ لزوجك لوفتْ لك، ولو أدّبتَ ولدك لعناه أمرك، ولو أحسنتَ اختيار صديقك ما خانك، ولو رحمت نفسك ما خسرت حياتك.. فأغمضَ عينيه وهو يقول " فلتكن مشيئة الله"

وهكذا فارق الحياة مفجوعًا بزوجته وولده وصديقه ونفسه وبستانه وقصره!

أفسدك قومك:

أيها المجرم الفاتك الذي يسلب الخزائن نفائسها والأجسام أرواحها، لست أحمل عليك من العتب فوق ما يحتمله ذنبك، ولا أنظر إليك بالعين التي نظر بها إليك القاضي الذي قسا في حكمه عليك؛ لأنّي أعتقد أنّ لك شركاء في جريمتك، فلا بد لي من أن أنصفك، وإن كنت لا أستطيع أن انفعك.

شريكك في الجريمة أبوك؛ لأنّه لم يتعهّدك بالتربية في صغرك، ولم يحل بينك وبين مخالطة المجرمين.

شريكك في الجريمة هذا المجتمع الإنسانيّ الفاسد الذي أغراك بها، مهّد لك السبيل إليها.

شريكك في الجريمة حكومتك؛ لأنّها كانت تعلم أنّ الجريمة هي الحلقة الأخيرة من سلسلة كثيرة الحلقات، ولا تعترض سبيلك.

هؤلاء شركاؤك في الجريمة.. وأقسم لو كنت قاضيًا لأعطيتك من العقوبة على قدر سهمك في الجريمة ولجعلت تلك الجزوع قسمة بينك وبين شركائك ولكنّي لا أستطيع أن أنفعك.

فيا أيها القتيل المظلوم: رحمة الله عليك!

الصدق والكذب:

جاءني هذا الكتاب من أحد الفضلاء. يا صاحب النظرات:

سمعت بالصدق، وما وعد الله به الصادقين من حسن المثوبة وجزيل الأجر... وسمعت بالكذب، وما أعدّ الله للكاذبين من سوء العذاب وأليم العقاب.. وقرأت ما كتبه حكماء الأمم من عهد آدم إلى اليوم...

فعاهدت الله ونفسي ألّا أكذب ما حييت، وأعددتُ لذلك القسم العظيم عدته من شجاعة نفس وقوة عزيمة بعد ما وجّهت وجهي إلى الله تعالى وسألته أن يمدّني بمعونته ونصره.

ها أنا ذاكر لك مواقف الصدق التي وقفتها بعد ذلك العهد، وما رأيته من آثارها ونتائجها.

الموقف الأول: جلست في حانوتي فما وقف بي مساوم إلّا صدقته القول في الثمن الذي اشتريت به السلعة والربح الذي أريده لنفسي منها والذي لا أستطيع أن أعد نفسي رابحًا إذا تجاوزت عن بعضه.. وما هي إلّا أيام قلائل حتى عرفت في السوق بالطمع والمغالاة فأصبحت لا يطرق باب حانوتي طارق.

الموقف الثاني: جلست في مجلس يتصدره شيخ من تجّار العقول الضيّقة المعروفين بمشايخ الطرق... و قد حفّ به جماعة من عبدته وسدنة هيكله فسمعته يشرح لهم معنى التوكل شرحًا غريبًا يذهب فيه إلى أنّه القعود عن العمل، وإلقاء حبل هذا الوجود على غاربه، وإعراض عن كلّ سعيٍ يؤدّي إلى أيّة غاية، ويعتمد في هذيانه على أحاديث لا يستند في صحتها على مستند سوى أنّه سمعها من شيخه، أو قرأها في كتابه..

فقلت لهم: أيّها القوم، إنكم تقولون بألسنتكم ما ليس في قلوبكم، إنّكم عجزتم عن العمل، وأخلدتم إلى الكسل، وأردتم أن تقيموا لأنفسكم عذرًا يدفع عنكم هاتين الوصمتين فسميتم ما أنتم فيه توكلًا وما هو إلّا العجز الفاضح والإسفاف الدنيء.

وهما زفر الشيخ زفرة الغيظ، ونادى في قومه: أن أخرجوا هذا الزنديق الملحد من مجلسي، فتألّبوا عليّ تألّبهم على قصاع الثريد، وأوسعوني لطمًا وصفعًا، ثمّ رموا بي خارج الباب، فما بلغت منزلي حتى هلكت أو كدت، فما مررت بعد ذلك

بطائفة من العاملة إلّا رموني بالنظر الشزر، وعاذوا بالله من رؤيتي، كما يعوذون به من الشيطان الرجيم!

الموقف الثالث: لا أكتمك يا سيّدي، إنّي كنت أبغض زوجتي بغضًا يتصدّع له القلب، غير أنّي كنت أصانعها وأتودد إليها وأمنحها من لساني ما ليس له أثر في قلبي، مداورة لها وإبقاء على ما تحتويه يدي من صبابة مال لها، فرأيت أنّ ذلك أكذب الكذب وأقبحه، فما هي إلّا عشية أو ضحاها حتى وهنت تلك العقدة، وانحل الوثاق، و ختمت سورة الفراق بآية الطلاق.

الموقف الرابع: حضرت مجتمعًا يضم بين حاشيته جماعة من الفضولين الذين تضيق بهم مذاهب القول فيلجؤون إلى الحديث عن الناس وتتبّع عثراتهم، فوالله لأن تقع السماء على الأرض أحبّ إليّ من أن يُتّهمَ البريء أو يجازى المحسن سوءًا على إحسانه... خاطبتهم بهذه الكلمات؛ أريد بها خيرًا لهم، فأرادوا شرًا بي! فما خلصت من بينهم إلّا وأنا ألمس رأسي بيدي لأعلم أين مكانها من عنقي!

الموقف الخامس: قابلني في الطريق شاعر يحمل في يده طومارًا كبيرًا كنت ذاهبًا إلى موعد لابدّ لي من الوفاء به، فرضَ عليّ أن يسمعني قصيدة من طريف شعره، وأنا أعلم الناس بطريفه وتليده، فاستعفيته بعد أن كاشفته بعذري فأبى... وسقطت القصيدة من يده فأسرعت إليها ومزقتها، وأرحت نفسي منها، وأرحت الناس من مثل مصيبتي فيها، وكان الشرطي قد وصل إلينا فاحتملنا جميعًا إلى المخفر ثم إلى السجن حيث أكتب إليك كتابي هذا.

فيا صاحب النظرات، أفتني في أمري، وأنر ظلمة نفسي؛ فقد أشكل عليّ الأمر وأصبت أسوأ الناس بالصدق ظنًّا، بعد ما رأيت أنّي ما وقفت موقفه في حياتي إلّا خمس مرات، فكانت نتيجة ذلك إفلاسي وخراب بيتي، واتهامي بالخيانة مرة والزندقة أخرى؛ ذلك إلى ما أقاسيه اليوم في هذا السجن من أنواع الآلام، وصنوف الأقسام!

أيّها السجين،،،

كتبت إليّ تشكو من جناية الصدق عليك، ما وقف بك موقف الشكّ في أمره، وكدا يزلق بك إلى الاعتقاد أنّه رذيلةُ الرذائل لا فضيلة الفضائل. ليست الفضيلة وسيلة من وسائل العيش أو كسب المال، وإنّما هي حالة من حالات النفس تسمو بها إلى أرقى درجات الإنسانية وتبلغ بها غاية الكمال.

الصدق جنّة حفت بالمكاره؛ فإن كان للصادق في جنة الصدق أرب؛ فليحمل في سبيلها ما حمله الأنبياء والمرسلون والحكماء والقائمون بإصلاح المجتمع الإنساني ودعاة المطالب الدينية والسياسية.

أيها السجين الشريف:

هنيئًا لك السجن الذي تكابده، وهنيئًا لك البغض الذي تحتمله، وهنيئًا العيش الذي تعالج همومه؛ فوالله لأنت أرفع في نظري من كثير من أولئك الذين يعدّهم الناس سعداء، ويسمّونهم عظماء.

لا تظلم الصدق، ولا تكن سيئ الظنّ به، وكن أحرص الناس على ولائه ومودته، اصبر قليلًا يثمر لك غرسه ويمتدّ عليك ظلّه!

النظّامون:

من لي بذلك القلم العريض الذي يكتب به كتاب الصحف السياسية عناوين مقالاتهم في معرض التهويل والتفخيم، فأكتب به إلى هؤلاء المساكين هذه الكلمة الآتية:

أيها القوم، إنّ علماء الضاد الذين عرفوا الشعر بأنّه الكلام الموزون المقفى، لم يكونوا شعراء ولا أدباء ولا يعرفون من الشعر أكثر من إعرابه وبنائه واشتقاقه وتصريفه... لا تظنّوا أنّ الشعر كما تظنون، وإلّا لاستطاع كل قارئ بل كل ناطق أن يكون شاعرًا.

أيها القوم، ما الشعر إلّا روح يودعها الله فطرة الإنسان من مبدأ نشأته ولا تزال كامنة فيه كمون النار في الزند.

فإن غمّ عليكم الأمر، وأعجزكم أن تعلموا مكان تلك الروح الشعريّة من نفوسكم، فأعرضوا أنفسكم على من يرشدكم إليكم ويدلّكم عليكم، حتى تكونوا على بيّنة من أمركم.

الحريّة:

استيقظت فجر يوم من الأيّام على صوت هرة تموء بجانب فراشي وتتمسّح بي، وتلحّ فيّ إلحاحًا غريبًا، فرأبني أمرها، وأهمني همّها... وكان باب الغرفة مرتجًّا، فرأيت أنّها تطيل النظر إليه وتلتصق بي كلّما رأتني أتوجّه نحوه، فأدركت غرضها وعرفت أنّها تريد أن أفتح لها الباب، فأسرعت بفتحه فما وقع نظرها على الفضاء؛ ورأت وجه السماء حتى استحالت حالتها من حزن وهم إلى غبطة وسرور، وانطلقت تعدو في سبيلها.

وهنا ذكرت أنّ كثيرًا من أسرى الاستبداد من بني الإنسان لا يشعرون بما تشعر به الهرّة المحبوسة في الغرفة!

صنع الإنسانُ القوي للإنسان الضعيف سلاسل وأغلالًا، وسمّاها تارّة ناموسًا وأخرى قانونًا؛ ليظلمه باسم العدل، ويسلب منه جوهرة حريّته باسم الناموس والنظام!

الحريّة شمس يجب أن تشرق في كل نفس، فمن عاش محرومًا منها عاش في ظلمة حالكة، يتّصل أوّلها بظلمة الرحم، وآخرها بظلمة القبر.

إنّ الإنسان الذي يمدّ يديه لطلب الحرية ليس بمتسول ولا مستجد، وإنّما هو يطلب حقًا من حقوقه التي سلبته إيّاها المطامع البشرية، فإن ظفر بها فلا منّة لمخلوق عليه، ولا يد لأحدٍ عنده.

عَبرة الهجرة:

إنّ في أخلاق النبي -صلّى الله عليه و سلم- وسجاياه التي لا تشتمل على مثلها نفس بشرية ما يغنيه عن كل خارقة تأتيه من الأرضِ أو السماء، أو الماء أو الهواء.

إنّ ما كان يبهر العرب من معجزات علمه وحلمه وصبره واحتماله وتواضعه وإيثاره، وصدقه وإخلاصه أكثر مما كان يبهرهم من معجزات تسبيح الحصى وانشقاق القمر، ومشي الشجر، ولين الحجر.

كان صلّى الله عليه وسلّم شجاع القلب، فلم يهب أن يدعو إلى التوحيدِ قومًا مشركين غلاظ، كان على ثقة من نجاح دعوته.

كان حليمًا سمح الأخلاق فلم يزعجه إن كان قومه يؤذونه ويزدرونه...

كان واسع الأمل كبير الهمة صلب النفس.

وما زال هذا شأنه حتى علم أنّ مكة لن تكون مبعث الدعوة، ولا مطلع تلك الشمس المشرقة، فهاجر إلى المدينة فانتقل إلى الإسلام بانتقاله من السكون إلى الحركة، ومن طور الخفاء إلى طور الظهور.

لذلك كانت الهجرة مبدأ تاريخ الإسلام لأنّها أكبر مظهر من مظاهره.

إنّ حياة النبي -صلّى الله عليه وسلّم- أعظم مثال يجب أن يحتذيه المسلمون للوصول إلى التخلّق بأشرف الأخلاق والتحلّي بأكرم الخصال، وأحسن مدرسة يجب أن يتعلّموا فيها...

الإنصاف:

إنّ صديقك الذي يبسم لك في حاليّ رضاك وغضبك، وحلمك وجهلك، وصوابك وسقطك، ليس ممّن يغتبط بمودّته، أو يوثق بصداقته؛ لأنّه لا يصلح أن يكون مرآتك التي تتراءى فيها فتكشف لك عن نفسك، وتصدّقك عن زينك وشينك وحلوك ومرّك، وهو إمّا جاهل متهوّر، وإما منافق خادع.

فها أنت ذا ترى أنّ الناس يعكسون القضايا، ويقلّبون الحقائق؛ فيسمّ الصادق كاذبًا، والكاذب صادقًا، ولكنّ الناس لا يعلمون.

المدينةُ الغريبة:

إنّ في أيدينا معشر الكتاب من نفوس هذه الأمة وديعة يجب علينا تعهدها والاحتفاظ بها والحدب عليها حتى نؤدّيهت إلى أخلافنا من بعدنا.

الأمّة المصريّة أمة مسلمة شرقيّة، فيجب أن يبقى لها دينها وشرقيتها ما جرى نيلها في أرضها.

يريد المصريُّ أن يقلّدَ الغربيّ في نشاطه وخفته، في رفاهيّته ونعمته، وفي الوطنيّة لا يأخذ منها إلّا نعيقها ونعيبها، يريد أن يقلّده في السياحة، يريد أن يقلّده في العلم، يريد أن يقلّده في الإحسانِ والبر، يريد أن يقلّده في تعليم المرأة وتربيتها.

هذا شأنه في الفضائل الغربية، يأخذها صورة مشوهة وقضية معكوسة لا يعرف لها مغزى، فيكون مثله كمثل جهلة المتدينين!

أمّا شأنه في رذائلها فإنّه أقدر الناس على أخذها كما هي.

إنّ في المصريين عيوبًا جمّة في أحلاقهم وطباعهم، ومذاهبهم وعاداتهم، فإن كان لا بدّ لنا من الدعوة إلى إصلاحها؛ فلندع إلى ذلك باسم المدينة الشرقية لا باسم المدينة الغربية.

وبعد... فليعلم كتاب هذه الأمّة وقادتها: إنّه ليس من عادات الغربيين وأخلاقهم الشخصيّة الخاصة بهم ما نحسدهم عليه كثيرًا؛ فلا يخدعون أمتهم عن نفسها، ولا يفسدوا عليها دينها وشرقيتها، ولا يزيّنوا لها تلك المدينة تزيينًا يرزؤها في استقلالها النفسي؛ بعد ما رزأتها السياسة في استقلالها الشخصي.

يوم الحساب:

لم تخالط جفني سِنة الكرى حتى خيّل إليّ أنّي قد انتقلت من العالم الأوّل إلى العالم الثاني، ورأيت كأنّي بُعِثت بعد الموت وكأنّ أبناءَ آدم مجتمعون في صعيد واحد يحاسبون على أعمالهم، فألهمت أنّن موقف الحشر!

وأنشأت أمشي مشية الحائر الذاهل، لا أعرف لي مذهبًا ولا مضطربًا، ولا أجد من يأخذ بيدي ويدلّني على نفسي في هذا الموقف الذي ينشد فيه كل ذي نفس نفسه...

هنالك وقد بلغ اليأس والهم مبلغهما من نفسي، رأيت على البعد وجهًا يبتسم لي ويدنو منّي رويدًا رويدًا... فإذا صديقي "فلان" وإذا وجهه يتلألأ تلألؤ الكوكب في علياء السماء... وقلت في نفسي لقد هان أمر الحساب على كل عاصٍ بعد ما هان على هذا الذي كنت أعرفه في أولاه؛ لا يتّقي مأثمًا، ولا يهاب منكرًا... نظر إليّ تلك النظرة وقال: لا تعجب لأمر في هذه الدار فكل ما فيها عجب، واعلم أنّ الله حاسبني على كل ما كنتُ أجترح من الآثام في الدار الأولى إلّا أنّه وجد في جريدة حسناتي حسنةً ذهبت بجميع السيئات، وماكان الإحسان وحده سبب سعادتي بل كان سببها أنّه أصاب الموضع وخلص من شائبة الرياء، فهنّأته بنعمة الله عليه وشكوت إليه وحشتي من الوحدة وخوفي من المحاسبة، فقال: أمّا الوحشة؛ فلن أفارقك حتى يأتيك دورك، أمّا الخوف؛ فلا حيلة لي ولا لأحد من النّاس في نقض ما أبرم الله في شأنك... فلا يشفع عنده أحد إلّا بإذنه.

وما وصل من حديثه إلى هذا الحد حتى رأينا كوكبة من ملائكة العذاب تحيط برَجُلٍ يُساق إلى النّار، ورأينا في كل واحد منهم مقرعة من الحديد يقرع بها رأسه! فسألت صاحبي: ما ذنب الرجل؟ فقال: إنّه كان في حياته يتّخذ في أعماله ما يسمّونه "الحيَل الشرعيّة" وكان يرابي باسم الرهن، فذنبه أنّه كان يعمد إلى الأحكام الشرعية فينتزع منها حكمها وأسرارها.

وما زال المنصرفين من موقف القضاء يمرّون بنا، هذا إلى جنّته، وذاك إلى ناره...

وبينا أنا كذلك إذ سمعت صوتًا صارخًا ما قرع سمعي في حياتي مثله يناديني باسمي، فعلمت أن قد جاء دوري، فأدركني من الهول والرعب ما أيقظني من نومي، فاستيقظت فلم أرَ حسابًا ولا عقابًا ولا موقفًا ولا محشرًا؛ فعلمت أنّها خيالات وأوهام، أو أضغاث أحلام، وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين.

الشعرة البيضاء:

مررت صباح اليوم أمام المرآة، فلمحت في رأسي شعرة بيضاء، تلمع في تلك اللمة السوداء لمعان شرارة البرق في الليلة الظلماء.

رأيت الشعرة البيضاء في مفرقي فارتعت لمرآها كأنّما خيّل إليّ أنّه سيف جرّده القضاء على رأسي ...

أيّتها الشعرة البيضاء، يخيل إليّ وأنا أنظر إليك أنّك من ذات الحيلة والدهاء والكيد والخبث.

أيّتها الشعرة البيضاء، هل لك أن تتجاوزي عمّا أسأت به إليك في إطالة عتبك، و استثقال ظلك؟ فلقد رجعت إلى نفسي فعلمت أنّك أكرم الخلائق عندي، وأعظمها شأنًا في عيني.

أيّتها الشعرة البيضاء، مرحبًا بك اليوم، ومرحبًا بأخواتك غدًا...

ومرحبًا بهذا القضاء المختبئ وراءك أو الكامن في أطوائك، ومرحبًا بتلك الغرفة التي أخلو بها بربّي، وآنس بنفسي، من حيث لا أسمع حتى دويّ المدافع، و لا أرى حتى غبار الوقائع.

الصيّاد:

حدّث أحد الأصدقاء قال: بينا أنا في منزلي صبيحة يوم، إذ دخل عليّ رجل صيّاد يحمل في شبكةٍ فوق عاتقه سمكةً كبيرة فعرضها عليّ فلم أساومه فيها بل نقدته الثمن الذي أراده، فأخذه شاكرًا متهللًا وقال: هذه هي المرّة الأولى التي أخذت فيها الثمن الذي اقترحته! أحسن الله إليك كما أحسنت إليّ وجعلك سعيدًا في نفسك كما جعلك سعيدًا في مالك؛ فسررت بهذه الدعوة كثيرًا، فقلت له: يا شيخ، وهل توجد سعادة غير سعادة المال؟ فابتسم ابتسامة هادئة مؤثرة وقال: إذا أخذت من السمك كفاف يومي عدت وبعته في الأسواق أو على أبواب المنازل، فإذا أدبر النهار عدت إلى منزلي، فيعتنقني ولدي وتبشّ في وجهي زوجتي، فإذا قضيت بالسعي حق عيالي بالصلاة، حق ربّي نمت في فراشي نومة هادئة مطمئنة، لا أحتاج معها إلى ديباج وحرير أو مهد وثي، فهل أستطيع أم أعد نفسي شقيًّا، وأنا أروح الناس بالًا، وإن كنت أقلّهم مالًا؟!

ومن أراد أن يطلب السعادة فليطلبها بين جوانب النفس الفاضلة، وإلّا فهو أشقى العالمين.

قال الصديق: فما وصل الصيّاد من حديثه إلى هذا الحد حتى نهض قائمًا وتناول عصاه وقال: أستودعك الله يا سيدي وأدعو لك الدعوة التي أحببتها لنفسك وأحببتها لك، وهي: أن يجعلك الله سعيدًا في نفسك، كما جعلك سعيدًا في مالك...

والسلام عليكم ورحمة الله...

الانتحار:

في كلّ موسم من مواسم الامتحان المدرسيّ نسمع بكثير من حوادث الانتحار بين المتخلّفين من التلاميذ والراسبين، ولو رُبّيَ التلميذ تربية دينية لما هان عليه أن يخسر سعادته الآخروية خسرانًا مبينًا أسفًا على أن لم ينل كل حظه من السعادة الدنيوية... لا يجني الطالب على نفسه وإنّما يجني عليه والده وأستاذه والمجتمع الذي يعيش فيه.

أيُّها الناشيء: لقد جهل أبوك، وغشّك أستاذك، وخدعك هذا المجتمع الفاسد، فكن أحسن حالًا منهم، واعلم أنّ شرف العلم أكبر من شرف المنصب. وأنّ المنصب ما كان شريفًا إلّا لأنّن حسنة من حسنات العلم، وأثر من آثاره، فإن فاتك حظك منه فلا تحفل به، فهو أحقر من أن تشتدّ في أثره، أو تبذل حياتك وجدًت عليه.

خذ لنفسك حظها من العلم والأدب، ولا تحفل بعد ذلك بشيء فقد ربحت كل شيء.

الجمال:

الجمال هو التناسب بين أجزاء الهيئات المركبة، سواء أكان ذلك في الماديّات أم في المعقولات، وفي الحقائق أم في الخيالات.

ليس كلّ مجنون يرجى شفاؤه، ولا كلّ مريض يرجى إبلاله، كذلك ليس كلّ من فسد ذوقه يرجى صلاحه، فإن رأيت من تؤمل في إصلاحه أخيرًا، وتجد في نفسه استعدادًا لتقويم ذوقه، فعلاجه أن تحفّه بأنواع الجمال، وتدأب على تنبيه إلى متناسباته ومؤتلفاته، وإن استطعت أن تعلّمه فنًّا من الفنون الجميلة كالشعر والتصوير والموسيقى فافعل، فإنّها المقاومات للأذواق، والغارسات في النفوس ملكات الجمال.

الكذب:

عرف الحكماء الكذب بأنّه مخالفة الكلام للواقع، ولعلّهم جاروا في هذا التعريف الحقيقة العرفية، و لو شاؤوا لأضافوا إلى كذب الأقوال كذبَ الأفعال.

ليس الكذب شيئًا يُستهان به، فهو أُسّ الشرور ورذيلة الرذائل فكأنّه أصل والرذائل فروع له، بل هو الرذائل نفسها. وإنّما يأتي في أشكال مختلفة ويتمثّل في صور متنوعة.

فويل للصادق من حياة نكدة لا يجد فيها حقيقة مستقيمة، وويل له من صديق يخون العهد، ورفيق يكذب الود، ومستشار غير أمين، وجاهل يفشي السر، وعالم يحرّف الكلم عن مواضعه، وشيخ يدّعي الولاية كذبًا، وتاجر يغشّ في سلعته و يحنّث في إيمانه، وصحفيّ يتّجر بعقول الأحرار، كما يتّجر النخّاس بالعبيد والإماء، ويكذب على نفسه وعلى الله وعلى الناس في كل صباح ومساء.

غرفة الأحزان:

كان لي صديق أحبّه لفضله وأدبه، أكثر مما أحبّه لصلاحه ودينه، فكان يروقني منظره، ويؤنسني محضره، ولا أبالي بعد ذلك بشيء من نسكه وعبادته، أو فسقه واستهتاره؛ لأنني ما فكّرت قط أن أتلقّى عنه علوم الشريعة أو دروس الأخلاق.

قضيت في صحبته عهدًا طويلًا ما أنكر من أمره ولا ينكر من أمري شيئًا، حتى سافرت من القاهرة سفرًا طويلًا فتراسلنا حينا، ثمّ انقطعتْ عنّي كتبه فرابني من أمره ما رابني، ثمّ ذهبت إلى منزله، فحدّثني جيرانه أنّه هجره من عهد بعيد، وأنّهم لا يعرفون أين مصيره، فوقفت بين اليأس والرجاء برهة من الزمان، يغالب أولهما ثانيهما، حتى غلبه، فأيقنت أنّي لن أجد بعد اليوم إلى الرجل سبيلًا.

بينا أنا عائد إلى منزلي في ليلة من ليالي السرار، إذ دفعني الجهل بالطريق في هذا الظلام إلى زقاق موحش مهجور، يخيل للناظر إليه أنّه مسكن الجان، أو مأوى الغيلان، فما توسطت لجّته حتى سمعت في منزل من تلك المنازل المهجورة أنّه تتردد في جوف الليل، ثم تلتها أختها ثم أخواتها، فأثر في نفسي مسمعها، وقلت: يا للعجب! كم يكتم هذا الليل في صدره من أسرار البائسين، وخفايا المحزونين...

فتلكّست الطريق إلى ذلك المنزل حتى بلغته، فطرقت الباب طرقًا شديدًا، ففتحت لي فتاة صغيرة لم تكد تسلخ العاشرة من عمرها، فإذا هي في ثيابها الممزقة، كالبدر وراء الغيوم المتقطعة، وقلت لها: هل عندكم مريض؟ فزفرت زفرة كاد ينقطع لها نياط قلبها، وقالت: أدرك أبي أيها الرجل فهو يعالج سكرات الموت.

وصلت إلى غرفة فدخلتها، فخيّل إليّ أنّ الغرفة قبر، والمريض ميّر، فدنوت منه حتى صرت بجانبه، فإذا قفص من العظم يتردد فيه النفس تردد الهواء في البرج الخشبي. فوضعت يدي على جبينه ففتح عينيه، ثم فتح شفتيه قليلًا قليلًا، وقال بصوت خافت: "أحمد الله فقد وجدت صديقي"، فشعرت كأنّ قلبي يتمشّى في صدري جزعًا وهلعًا، وعلمت أنّب قد عثرت بضالّتي التي كنت أنشدها، فسألته ما باله؟ وما هذه الحال التي صار إليها؟ فأشار إليّ أنّه يحبّ النهوض، فمددت يدي إليه، وأنشأ يقصّ علي القصة الآتية:

منذ عشر سنين كنت أسكن أنا ووالدتي بيتًا يسكن بجانبه جار لنا من أرباب الثراء والنعمة، وكان قصره يضم بين جناحيه فتاة ما ضمّت القصور أجنحتها على مثلها حسنًا وبهاء، فألمّ بنفسي من الوجد بها ما لم أستطع معه صبرًا، فما زلت بها أعالجها فتمتنع، حتى عثرت بمنفذ الوعد بالزواج فانحدرت منه إليها، فسلبتها قلبها وشرفها في يوم واحد، وما هي إلّا أيام قلائل، حتى عرفت أن جنينًا يضطرب في أحشائها فأسقط في يدي، وطفقت أرتئي بين أن أفي لها بوعدها، أو أقطع حبل ودّها، فآثرت أخراهما على أولاهما، وهجرت ذلك المنزل، ولم أعد أعلم بعد ذلك من أمرها شيئًا.

مرّت على تلك الحادثة أعوام طوال، وفي ذات يوم جاءني منها مع البريد كتاب، وأخرج كتابًا باليًا مصفرًّا، فقرأت فيه ما يأتي: (لو كان بي أن أكتب إليك لأجدد عهدًا دارسًا، ما كتبت سطرًا، إنّك عرفت حين تركتني أنّ بين جنبي نارًا تضطرم، وجنينًا يضطرب، وفررت منّي حتى لا تحمل نفسك مؤونة النظر إلى شقاء أنت صاحبه، فهل أستطيع بعد ذلك أن أتصور أنّك رجل شريف؟ لا... بل لا أستطيع أن أتصور أنّك إنسان؛ وكل ما في الأمر أنّك رأيتني السبيل إلى إرضائها فمررت بي في طريقك إليها، ولولا ذلك ما طرقت لي بابًا، ولا رأيت لي وجهًا.

خنتني إذ عاهدتني على الزواج فأخلفت وعدك ذهابًا بنفسك أن تتزوج امرأة مجرمة ساقطة، ولولاك ما كنت مجرمة ولا ساقطة. سرقت عفّتي، فأصبحت ذليلة النفس حزينة القلب، أستثقل الحياة وأستبطئ الأجل. سلبتني راحتي لأنّي أصبحت مضطرة بعد تلك الحادثة إلى الفرار من ذلك القصر إلى منزل حقير في حي مهجور لا يعرفه أحد، لأقضي فيه الصبابة الباقية لي من أيام حياتي. قتلت أمي وأبي، فقد علمت أنّهما ماتا، وما أحسب موتهما إلّا حزنًا لفقدي، ويأسًا من لقائي.

قتلتني؛ لأنّ ذلك العيش المر الذي شربته من كأسك، والهم الطويل الذي عالجته بسببك، قد بلغا مبلغهما من جسمي ونفسي، فأصبحت في فراش الموت كالذبالة المحترقة تتلاشى نفسًا في نفس، فأنت كاذب خادع، ولص قاتل، ولا أنّ الله تاركك دون أن يأخذ لي بحقي منك.

ما كتبت إليك هذا الكتاب لأجدّد بك عهدًا، أو أخطب إليك ودًّا، فأنت أهون عليّ من ذلك، وإنّما كتبت إليك لأنّ لك عندي وديعة وهي فتاتك، فإن كان الذي ذهب بالرحمة من قلبك أبقى لك منها رحمة الأبوة، فأقبل إليها وخذها إليك حتى لا يدركها من الشقاء ما أدرك أمّها من قبلها).

فما أتممت قراءة الكتاب حتى نظرت إليه فرأيت مدامعه تنحدر على خدّيه فسألته: وماذا تم بعد ذلك؟ قال: إنّي ما قرأت هذا الكتاب حتى أحسست برعدة تتمشّى في جميع أعضائي، فأسرعت إلى منزلها وهو هذا المنزل الذي تراني فيه الآن، فرأيتها في هذه الغرفة على هذا السرير جثّة هامدة لا حراك بها ، ورأيت فتاتها إلى جانبها تبكي بكاء مرًّا، فصعقت لهول ما رأيت، فما أفقت حتى عاهدتُ الله ألّا أبرح هذه الغرفة التي سمّيتها غرفة الأحزان حتى أعيش فيها عيشها؛ وأموت موتها.

وما وصل من حديثه إلى هذا الحد، حتى انعقد لسانه واكفهر وجهه وسقط على فراشه فأسلم الروح وهو يقول: ابنتي يا صديقي.

ولما حثونا التراب فوق ضريحه جزعنا ولكن أيّ ساعة مجزع

يعلم الله أنّي أكتب قصّته، ولا أملك نفسي من البكاء والنشيج، فيا أقوياء القلوب من الرجال، رفقًا بضعفاء النفوس من النساء، إنّكم لا تعلمون حين تخدعونهن عن شرفهن، وعفتهن... أيّ قلب تفجعون، وأيّ دم تسفكون!!

الشرف:

لو فهم الناس معنى الشرف لأصبحوا كلهم شرفاء، ما من عامل يعمل في هذه الحياة إلّا وهو يطلب في عمله الشرف الذي يتصوّره، يفسق الفاسق وفي اعتقاده أنّه قد نفض عن نفسه بعمله هذا غبار الخمول البله الذي يظل الإعفاء والمستقيمين.

يسرق السارق، وفي اعتقاده أنّ الشرف كلّ الشرف في إحراز المال وإن كان السبيل إليه دنيئًا وسافلًا، هكذا يتصوّر الأدنياء أنّهم شرفاء، وهكذا يطلبون الشرف، ويخطئون مكانه، وما أفسد عليهم تصورهم إلّا الذين أحاطوا بهم من خلطائهم.

لا تعجب إن سمعت أنّ جماعة الأغنياء الجهلاء تنعكس في أدمغتهم صور الحقائق حتى تلبس في نظرهم ثوبًا غير ثوبها، لولا فساد التصوّر ما افتخر قائد الجيش بأنّه قتل مائة ألف من النفوس البشرية في حرب لا يدافع فيها عن فضيلة، ولولاه لما توهم اللص الكبير أنّه أشرف من هذا اللص الصغير، ولو باتا عند قدريهما لوقفا معًا في موقف واحد أمام قاضٍ عادل.

فمن شاء أن يهذّب أخلاق الناس، فليهذّب تصوراتهم، يوافه ما يريد من التهذيب والتقويم.

لا شرف إلّا الشرف الحقيقيّ، وهو الذي يناله الإنسان ببذل حياته أو ماله في خدمة المجتمع البشريّ جميعه، فالعالم شريف، لأنّه يجلو صدأ العلّ الإنساني ويصقل مرآته، والصانع، والتاجر، والزارع، أشراف متى كانوا أمناء مستقيمين، لأنّهم هم الذين يحملون على عواتقهم هذا المجتمع البشري، ويحتملون في سبيل ذلك المؤنة والمشقة حذرًا عليه من التهافت والسقوط.

إن رأيت نفسك واحد من هؤلاء، فاعلم أنّك شريف، وإلّا فاسلك طريقهم جهدك، فإن لم تبلغ غايته فأَخذُ القليل خير من ترك الكثير، فإن لم يكن هذا ولا ذاك فلتبكِ على عقلك البواكي.

الحب والزواج:

قرأت في بعض المجلّات قصة، أنّ كاتبها غاب عن بلده بضعة أعوام، ثم عاد إليها، فزار صديقًا له، فوجده حزينًا كئيبًا، فعرف أنّه كان متزوجًا من فتاة يحبّها، فلم تحفظ صنيعه، وفرّت منه إلى عشيق لها رقيق الحال وضيع النسب، فاجتهد الكاتب أن يلقى تلك الفتاة، فلقيها في منزل عشيقها فاعتذرت إليه عن فعلتها، بأنّها لا تحب زوجها لأنّه في الأربعين من عمره وهي لم تبلغ العشرين، وقالت: إنّها جرت في ذلك على حكم الشرائع الطبيعية، وقالت: ما يسمّيه الناس بالزنا والخيانة هو في الحقيقة طهارة وأمانة، ولا الجريمة إلّا أن تأذن المرأة لزوجها الذي تكرهه بالإلمام بها، مادامت لا تحبّه ولا تألف عشرته، وقالت: لو أدرك الناس أسرار الديانات لعرفوا أنها متفقة في هذه المسألة مع الشرائع الطبيعية.

وأحسبها قصة موضوعة على نحو ما يضع الكتاب القصص الخيالية لنشر رأي من الآراء وتأييد مذهب من المذاهب، وسواء كانت القصّة حقيقيّة أم خياليّة، فالحق أقول: أنّ الكاتب أخطأ في وضعها!

قرأنا ما كتب الكاتبون في سبيل الدفاع عن المرأة الساقطة، وهي التي هفت في حياتها هفوة دفعها إليها دافع خداع، فقلنا: لا بأس بتهوينهم ذنبًا جسّمته العادة، ولا بأس برحمتهم فتاة مذنبة تحاول الرجوع إلى ربّها. أمّا قد وصل الحد إلى تزيين الزنا

للزانية وتهوين إثمه عليها، وإغراء العفيفة الصالحة بالتمرد على زوجها والخروج عن طاعته، فهذا ما لا يطاق احتماله ولا يستطاع قبوله!

إن كانت هذه الفتاة عفيفة طاهرة كما يزعم الكاتب فقد أخطأ علماء اللغة جميعًا في وضع كلمة الفساد في معاجمهم، لأنّها لا مسمى لها في هذا العالم، كلّ الأزواج ذلك الزوج إلا قليلًا، فإذا جاز لكل زوجة أن تفرّ من زوجها إلى عشيقها كلما وقع في نفسها الضجر، فويل لجميع الرجال من جميع النساء، وعلى النظام البيتي والرابطة الزوجية بعد اليوم ألف سلام.

إن الضجر والسآمة من الشيء المتكرر طبيعة من طبائع النوع الإنسانيّ، وقد علم الله سبحانه وتعالى ذلك منه، فوضع قاعدة الزواج الثابت ليهدم بها قاعدة الحبّ المضطرب، وأمر الزوجين أن يعتبرا هذا الرباط رباطًا مقدسًا حتى يحول بينهما وبين رجوعهما إلى طبيعتهما، من حيث الميل لكل جديد. هذا هو سرّ الزواج وهذه حكمته.

لا بأس أن يتثبّت الرجل قبل عقد الزواج من وجود الصفة المحبوبة لديه في المرأة التي يختارها لنفسه، ولا بأس أن تصنع المرأة صنيعه، ولكن لا معنى أن يكون الحب الشهوي هو قاعدة الزواج. فالقلوب متقلبة، والأهواء نزّاعة.

الإسلام والمسيحية:

ما عجبت لشيء في حياتي عجبي لهؤلاء الذين يعجبون كثيرًا ممّا كتبه الـ"لورد كروس" عن الإسلام، إنّ الـ"لورد كرومر" كما يعتقد كلّ مسيحي متمسّك بيسوعيّته أنّ الإسلام دين موضوع ابتدعه عربيّ بدويّ أميّ ما قرأ في حياته صحيفة، ولا دخل مدرسة، ولا تلقى شيئًا من علوم الشرائع والعمران.

هذا مبلغ معتقده في ذلك الرجل، فكيف يرى نفسه بين يديه أصغر من أن يناقشه ويناظره ويخاطئه فيما وضعه الناس من الشرائع والأحكام؟ أمّا ما نقرؤه أحيانًا من الثناء على الإسلام وإطراء أحكامه وآياته، فهو مكتوب بأقلام قوم مؤرّخين قد أدّوا للتاريخ حقّ الأمانة والصدق، ولا ريب أن الـ"لورد كرومر" ليس منهم.

بلغ التعصّب الدينيّ بجماعة المبشّرين أن حكموا بوجود اللحن في القرآن بعد اعترافهم بأنّه كتاب عربيّ نظّمه على حسب معتقدهم رجلٌ هو في نظرهم أفصح العرب، ولكنّ جهلة المبشرين لم يدركوا شيئًا من المسلمات، واستدلّوا على وجود اللحن في القرآن

لقواعد النحو التي ما دونّها مدونوها إلا بعد أن نظروا في كلام العرب، وتتبّعوا تراكيبه وأساليبه، وأكبر ما اعتمدوا عليه في ذلك هو القرآن المجيد، ولكن المبشرين جاهلون، فإذا كان التعصّب الدينيّ أنطق ألسنتهم بمثل هذه الخرافة المضحكة، فليس بغريب أن نسمع هذا الرجل المتشبّه بهم هذا الطعن على الإسلام في عقائده وأحكامه.

في أيّ عصر من عصور التاريخ، كانت الديانة المسيحية مبعث العلم ومطلع شمس المدنيّة والعمران؟ أفي العصر الذي كانت تدور فيه رحى الحرب الدمويّة بين الآرثوذكس والكاثوليكيّة تارّة، وبين الكاثوليك والبروتستانت تارّة أخرى. هذا الذي نعرفه أيّها الفيلسوف التاريخي من تاريخ العلم والعرفان والمدنية والعمران في العصور المسيحية.

أمّا المدنية الإسلامية فإنّها طلعت مع الإسلام في سماء واحدة من مطلع واحد في وقت واحد، ثم سارت إلى جانبه كتفًا لكتف ما ينكر من أمرها ولا تنكر من أمره شيئًا، إخوة متصافّون، وأصدقاء متحابون لا يختصمون ولا يقتتلون، ولا يكفّر بعضهم بعضًا، ولا يبغي أحد منهم على أحد.

أيّها الفيلسوف التاريخي، إليك البيان: جاء الإسلام يحمل للنوع البشري جميع ما يحتاج إليه في معاده ومعاشه ودنياه وآخرته، وما يفيده منفردًا وما ما ينفعه مجتمعًا، هذّب عقيدته بعدما أفسدها الشرك بالله.

وجملة القول، إنّ الدين الإسلامي ما غادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها، ولا ترك الإنسان يمشي في ميدان هذه الحياة خطوة من مهده إلى لحده إلا مدّ يده إليه وأنار له مواقع أقدامه، وأرشده إلى سواء السبيل.

طلعت هذه الشمس المشرقة في سماء العرب فملأت الكون نورًا وإشراقًا، فتمشّت أشعتها البيضاء إلى أوروبا من طريق أسبانيا وجنوب إيطاليا وفرنسا، فأبصرها عدد قليل من أذكياء الغربيين، فانتبهوا من رقدتهم، ورأوا من جمال المذاهب الإسلامية وشرائع الكون ما لفت نظرهم إلى المقابلة بين المجتمع الغربي الخامل الضعيف والمجتمع الشرقي النابه اليقظ.

كانت الخواطر المترددة في عقول أولئك الأذكياء هي الخطوة الأولى التي مشتها أوروبا في طريق المدنية والعمران بفضل الإسلام وشرائعه التي عرفها هؤلاء الأفراد من مخالطة المسلمين في أوروبا ومطالعة كتبهم، واستمر هذا النزاع بين العلم والجهل قرونًا عدّة حتى انتهى أمره بالثورة الفرنسية، فكانت هي القضاء الأخير على الوحشية السالفة والهمجية القديمة.

لا حاجة بي أن أشرح لك المدنية الإسلامية أو أسرد لك أسماء علمائها وحكمائها ومؤلفاتهم في الطبيعة والكيمياء والفلك والنبات والحيوان، فأنت تعرف ذلك كلّه إن كنت مؤرخًا كما تقول! غير أني لا أنكر ما لحق بالمسلمين في هذه القرون الأخيرة من الضعف والفتور، ولكن ليس السبب ذلك الإسلام كما نتوهّم، بل المسيحية التي سرت عدواها إليهم على أيدي قوم من المسيحيين أو أشباه المسيحيين لبسوا لباس الإسلام، فأمدّوهم بشيء من السطوة والقوة تمكنوا به من نشر مذاهبهم السقيمة وعقائدهم الخرافية بين المسلمين، وحالوا بينهم وبين الاستمداد من روح الإسلام وقوّته فكان من أمرهم بعد ذلك ما كان. كل ما نراه اليوم من المسلمين؛ أثر من آثار المسيحية الأولى، وليس من الإسلام في شيء.

أيها الفيلسوف التاريخي، لا تقل إنّنا متعصّبون تعصبًا دينيًا فإنّك قد أسأت إلينا وإلى ديننا، وهل التعصّب الديني إلّا اتحاد المسلمين يدًا واحدة على الذود عن أنفسهم والدفاع عن جامعتهم؛ وإعلاء شأن دينهم ونصرته حتى يكون الدين كله لله.

إن كان رفضًا حب آل محمد فليشهد الثقلان أنّي رافض

أهناء أم عزاء:

فارق مصر على أثر إعلان الدستور العثماني كثيرٌ من فضلاء السوريين بعدما عمّروا هذه البلاد بفضائلهم ومآثرهم وصيّروها جنّة زاخرة بالعلوم والآداب. قضوا بيننا تلك البرهة من الزمان يحسنون إلينا فنسيء إليهم، كأنّما كنا نحسب أنّهم قوم من شذاذ الآفاق أو نفايات الأمم جاؤوا إلينا، ونزلوا بيننا ضيوفًا كرامًا، وأساتذة كبارًا، فما أحسنّا ضيافتهم ولا شكرنا لهم نعمتهم.

فقد مضى ذلك الزمن بخيره وشرّه، وأصبحنا اليوم كلّما ذكرناهم خفقت أفئدتنا مخافة أن يلحق باقيهم بماضيهم، ولا ندري هل نحن بين يدي هذا النظام العثماني الجديد في هناء أم عزاء؟

فيا أيّها القوم المودّعون، والكرام الكاتبون:

اذكرونا مثل ذكرانا لكم ربّ ذكرى قربت من نزحا

واذكروا صبا إذا غنى بكم شرب الدمع وعاف القدحا

الزوجتان:

حدّثني أحد الأصدقاء قال: سأقصّ عليك قصة ليست من خيالات الشعراء، ولا أكاذيب القصّاصين.

أويت إلى مضجعي في ليلة من ليالي الشتاء حالكة الجلباب، قرع باب غرفتي فتسمعت فإذا الخادم تقول: إنّ امرأة سيئة الحال رثّة الثياب في زيّ المتسولات تلحّ في طلب مقابلتك وتقول: إنّ لها عندك شأنًا، فقلت في نفسي: لا شأن لي مع امرأة ربّما كانت ذات حاجة، فارتديت ردائي ونزلت، فإذا فتاة في ملاءة بالية وخمار خلق، وإذ هي ترعد وتضطرب وتقول: أما في الناس أخو همة ومروءة يعين على الدهر الغادر ويطفيء هذه الجذوة بقطرة واحدة من الرحمة؟ فقلت: من أنت يرحمك الله؟ قالت: أنا فلانة زوج فلان، فدهشت وغصصت بريقي، وقلت: يا للعجب! زوج فلان على عظمه وعظمها، تخرج في مثل هذه الساعة في مثل هذه البزّة! وسألتها: ما شأنك يا سيدتي وممّ تبكين؟ قالت: لا تحدث نفسك بريبة، فوالله ما جئت إليك إلّا وأنت أوثق الناس عندي، قلت: عهدي بسيدتي رخيّة البال ناعمة العيش سعيدة الحظ بزوج عذب الأخلاق، ولا يعدل بك أحدًا، قالت: إنّك تقصّ عليّ الأمس، فاستمع منّي حديث اليوم:

أظنك تذكر تاريخ زواجي منه وأنّه كان منذ ثلاثة أعوام، وأنّ أبي قد آثره على جميع الخاطبين من علية القوم وجلّتهم، وأنا لا ألومه على ذلك، فخدعه الخادعون عنّي، ومن ذا الذي لا يُخدع بشاب متعلّم مهذّب من ذوي المناصب الكبيرة والرتب العالية، وكيفما كان الأمر فقد تم عقد الزواج بيننا، وكنت امرأة أجمع في نفسي جميع ما يمتّ به النساء إلى الرجال، فما خنته ولا ضقت به ذرعًا، فجازاني بالإحسان سوءًا، وكفر بنعمة الله بعد الإيمان، ولا تغضب يا سيدي إن قلت لك: إن قلب الرجل متقلب متلوّن يسرع إلى البغض كما يسرع إلى الحب، وإنّ هذه المرأة التي تحتقرونها وتزدرونها وتضربون الأمثال بخفّة عقلها أوثق منه عقدًا، وأوفى عهدًا، ولو وفى الزوج لزوجته وفاءها له ما استطاع أن يفرّق بين قلبيهما إلّا ريب المنون، قلت: أنا لا أغضب لشيء إلا للإنسانيّة، ماذا تمّ بعد ذلك؟ قالت: مات أبي كما تعلم وخلف لي مالًا ما أمكنت منه زوجي فأتلفه بين الخمر والقمر، كان كثيرًا ما يتهكم بي ويقول: إنّني لا أحب المرأة الجاهلة التي لا تفهمني ولا أفهمها، وآونة كان يعرض بي قائلًا: إنّ الرجل السعيد هو

الذي يرزق زوجة متعلمة، بل يتجاوز التعريض أحيانًا إلى التصريح، فيقول كلّما دخل علي متأفّفًا متذمّرًا: ليت لي زوجة كفلانة، فكنت أشكُّ في سلامة عقله، وأقول في نفسي: كيف يفضّل الزوجة المتبذلة المستهترة على الحبيبة المحتشمة، ووالله ما تمنيت مرّة أن أكون على الصفة التي يحبّها ويرضاها مع ما كنت أبذل في رضاه من ذات اليد وذات النفس، وبعد، فما زال الملل يدبّ في نفسه حتى تحول إلى بغضاء شديدة، فما كان يلحظني إلا شزرًا، ثم يخرج لشأنه، حتى عرض له بعد ذلك أن نقل إلى منصب أرقى، فسافر وحده وتركني، فاستكتبت إليه الكتاب، فما أسلس قياده، فسافرت إليه، فما نزلت من القطار حتى قيض الله لي من وقفني على حقيقة أمره، وأعلمني أنّه تزوج من فتاة متعلمة وتحسن الرقص والغناء، فداخلني من الهمّ ما الله به عليم.

وكأنّه شعر بمكاني، فجاء إليّ يتهددني ويتوعدني، فتوسّلت إليه ببكاء طفلته التي كنت أحملها على يدي، ثم طردني وأمر من حملني إلى المحطة، فعدت من حيث أتيت. فما وصلت إلى المنزل حتى خلعت ملابسي ولبست هذه الثياب وجئتك متنكرة في ذمام الليل، ولأنّي أعلم كرمك وهمّتك، عسى أن ترى لي رأيًا في التفريق بيني وبينه.

فأحزنني من أمر تلك الفتاة البائسة ما أحزنني، ووعدتها بالنظر في أمرها، فعادت إلى منزلها، وعدت إلى مضجعي وقد اكتنفني همّان: همّ تلك البائسة، وهمّ ذلك الصديق الذي ربحته سنين عديدة وخسرته في ساعة واحدة!

هذا ما قصّه علي ذلك الصديق الكريم، ثمّ لم أعد أعلم بعد ذلك ما تمّ من أمره، حتى جاءني منه أمس ذلك الكتاب بعد مرور عام على تلك القصة الغريبة، وهذا نصّه:

يهمّني كثيرًا أن أرى بين كتب التهنئة التي ترد إلي كتابًا منك لأسر بمشاركتك إياي في سروري وهنائي.

إنّك لابد تذكر تلك القصة التي قصصتها عليك منذ عام في شأن تلك الفتاة التي خانها زوجها "فلان"، وربما كنت لا تعلم بما كان من أمرها بعد ذلك، فاعلم أنها دفعت زوجها إلى موقف القضاء فضاق بأمرها ذرعًا فطلّقها، وكنت أفكّر في ذلك التاريخ في الزواج من زوج صالحة، وما كنت لأجد زوجة أشرف نفسًا ولا أكرم عنصرًا منها، فتزوجتها فأمتعت نفسي بخير النساء وأنقذت الإنسانة المعذّبة من شقوتها وبلائها، وأبشّرك أنّ الله انتقم لهذه الفتاة المظلومة من ذلك الرجل الظالم، إنّه يعاني اليوم من زوجته الجديدة الموت الأحمر، وإنّها امرأة قد أخذت التربية الحديثة من نفسها مأخذًا عظيمًا فحوّلتها إلى فتاة غربيّة في جميع شؤونها، والرجل المصريّ

شرقي بفطرته كائنًا من كان، فهو يقاسي من تلك المرأة الخرقاء، أضعاف ما كانت تقاسيه منه أشرف النساء، والسلام.

في سبيل الإحسان:

الإحسان شيء جميل، وأجمل منه أن يحلّ محله ، ويصيب موضعه. الإحسان في مصر كثير، ووصوله إلى مستحقه وصاحب الحاجة إليه قليل؛ ليس الإحسان هو العطاء كما يظنّ عامّة الناس؛ فالعطاء قد يكون نفاقًا ورياءً، إنّما الإحسان عاطفة كريمة من عواطف النفس تتألّم لمنظر البؤس ومصارع الشقاء.

فوضى الإحسان:

الإحسان في مصر فوضى لا نظام له، فمثله كمثل السحاب الذي يقول فيه أبو العلاء:

ولو أنّ السحاب همى بعقل لما أروي مع النخل القتادا

الإحسان في مصر أن يدخل صاحب المال ضريحًا من أضرحة المقبورين فيضع في صندوق النظور قبضة من الفضة أو الذهب ربّما يتناولها من هو أرغد منه عيشًا وأنعم بالًا.

وأعظم ما يتقرب به محسن إلى الله، ويحسب أنّه بلغ من البرّ والمعروف غايتيهما: أن ينفق بضعة آلاف من الدنانير في بناء مسجد للصلاة في بلد مملوء بالمساجد، وفي البلد كثير من البائسين وذوي الحاجات، هو يحسب أنّه أحسن إليهم، ولو عرف موضع الإحسان لأحسن إليهم بقطع ذلك الإحسان عنهم علّهم يتعلّمون صناعة أو مهنة، فإن كان يظن أنّه يعمل في ذلك عملًا يقرّبه إلى الله تعالى أجلّ من أن يعبأ بعبادة قوم يتّخذون عبادته سلّمًا إلى طعام يطعمونه، ولا فرق بين الفريقين: إلّا أنّ هؤلاء يتسلحون بالبنادق والعصيّ، وأولئك يتسلّحون بالسبح والمساويك.

أسوأ الإحسان:

لم أرَ مالًا أضيع ولا إحسانًا أسوأ من الإحسان إلى هؤلاء المتسولين الذين يطوفون الأرض، وإن شئت أن تعرف المتسوّل معرفة حقيقية لتعرف هل يستحق عطفك وجنانك، فاعلم أنّه في الأعمّ الأغلب من أحواله رجل لا زوجة له ولا ولد ينفق عليهما، حتى لو علم أنّ الانقطاع عن ذلك الخسيس من الطعام والقذر من الشراب، لا يقعده عن السعي في سبيله لانقطع عنه، ولكنّه الحرص قد أفسد قلبه وأمات نفسه، فهو يتسوّل بأنواع الحيّ وصنوف الكيد.

كما يحكى أن شحّاذًا مقطوع الساق قد وضع مكانها أخرى من الخشب تقابل مع آخر كفيف البصر، فتنافسا في مصيبتيهما أيتهما أقذى للأعين، فقال الأول للثاني: لقد وهبك الله نعمة العمى ومنحك بسلب ناظريك أفضل حبالة لاصطياد القلوب واستفراغ الجيوب. فقال له صاحبه: وأين يبلغ العمى من هذه القدم الضخمة الثقيلة التي تجلب في كل عام وزنها ذهبًا؟

إنّ أكبر جريمة يجرمها الإنسان إلى الإنسانية يقوم في مجتمع من هذه المجتمعات البشريّة أن يساعد هؤلاء المتسولين بماله على الاستمرار في هذه الخطة الدنيئة فيغري كل من شعر في نفسه بالميل إلى البطالة وإيثار الراحة بالسعي على آثارهم.

تنظيم الإحسان:

ليست كميّة المال التي ينفقها المحسنون في سبيل الإحسان ممّا يستهان به، سألت رجلًا من وجوه الريفيين المعروفين بالبرّ والإحسان عن كميّة ما ينفقه كل عام في هذا السبيل، فأطلَعَني على جريدة حسابه فرأيتها، فهذه أربعون ومائتا جنيه ينفقها في سبيل الإحسان رجل واحد من متوسطي الثروة في عام واحد، وفي اعتقادي لو أنّ هذا المقدار حلّ من الإحسان محله، لارتقى بالأمّة المصرية إلى ذروة الكمال؛ لذلك أقترح في تنظيم الإحسان اقتراحًا نافعًا.

أقترح أن يقوم جماعة من سراة الأمّة بتأليف مجتمع في القاهرة يسمى "مجتمع الإحسان" ويكون له في كل مدينة من مدائن الأقاليم. أمّا أعماله فهي ثلاثة:

1- استخدام فريق من مهرة الكتاب وفصحاء الخطباء يقومون بتعليم أفراد الأمة معنى الإحسان، وما هو الغرض منه، وما هي أفضل وجوهه، وأي أنواعه أجمع لخيري الدنيا والآخرة.

2- بذل الجهد في حمل الناس على اعتبار مجتمع الإحسان هذا بيت مال لهم أو وكالة عامّة عنهم تتولى جمع الصدقات منهم وتوزيعها.

3- إنفاق ما يجتمع من المال على تربية اليتامى الذين لا كاسب لهم والقيام بأود العاجزين عن الكسب وتفقّد شؤون الذين نكبهم الدهر وتنكر لهم بعد العزّ والنعمة، ولا ينصرف معناه إلا إليها.

أنا أعتقد اعتقادًا لا ريب فيه أنّ من يخطو الخطوة الأولى في سبيل هذا العمل الجليل هو أفضل عامل في الوجود وأشرف إنسان.

أدب المناظرة:

أنا لا قول إلّا ما أعتقد، ولا أعتقد إلّا ما أسمع صداه من جوانب نفسي؛ وإنّ في رأسي عقلًا أجلّه عن أن أنزل به إلى أن يكون سيقة للعقول، فهل يحمل بعد ذلك بأحد من الناس أن يرميني بجارحة من القول لأنّي خالفت رأيه أو ذهبت غير مذهبه، لا بأس أن يؤيّد الإنسان مذهبه بالحجة والبرهان، ولا ملامة عليه في أن يتذرّع بكل ما يعرف من الوسائل إلى نشر الحقيقة التي يعتقدها إلّا وسيلة واحدة لا أحبّها له، وهي وسيلة الشتم والسباب.

إنّ لإخلاص المتكلم تأثيرًا عظيمًا في قوة حجته وحلول كلامه المحل الأعظم في القلوب والأفهام، أتدري لمَ يسبّ الإنسان مناظره؟ لأنّه جاهل وعاجز معًا، أمّا جهله لأنّه يذهب في واد غير وادي مناظره وهو يظن أنّه في واديه، وما أعجزه فلأنّه لو عرف إلى مناظره سبيلًا غير هذا السبيل لسلكه.

لا يجوز بأيّ حال من الأحوال أن يكون الغرض من المناظرة شيئًا غير خدمة الحقيقة وتأييدها، يسمع أحدهم الكلمة من صاحبه ويعتقد أنّها كلمة حق لا ريب فيها، ولكنّه يبغضه فيبغض الحق من أجله فينهض للرد عليه بحجج واهية وأساليب ضعيفة وإن كان هو قويًا في ذاته، لأنّ القلم لا يقوى إلا إذا استمدّ قوته من القلب، فإذا جيء بالحجج والبراهين لجأ إلى المراوغة والمهاترة.

على أنّ أكثر الناس متفقون على ما يظنون أنّهم مختلفون فيه، فإنّ لكل شيء جهتين: جهة مدح، وجهة ذم، فإمّا أن تتساويا، أو تكبر إحداهما الأخرى.

كان يقع بين ملك من الملوك ووزيره خلاف في مسائل كثيرة حتى يشتدّ النزاع بينهما، فحضر حوارهما أحد الحكماء وهما يتناظران في المرأة، يعلو بها الملك إلى مصاف الملائكة، ويهبط بها الوزير إلى منزلة الشياطين، فلمّا علا صوتهما، واشتد لجاجهما، خرج ذلك الحكيم وغاب عن المجلس ساعة، ثم عاد، وبين أثوابه لوح على أحد وجهيه صورة فتاة حسناء، وعلى الآخر صورة عجوز شوهاء، ثم عرض اللوحة على الملك صورة الفتاة الحسناء فامتدحها، و قلب اللوحة وعرض على الوزير العجوز الشمطاء فاستعاذ بالله من رؤيتها، فهاج غيظ الملك على الوزير، فلما عادا إلى ما كانا عليه من الخلاف، استوقفهما الحكيم وأراهما اللوح من جهتيه، فسكن ثائرهما وضحكا ضحكًا كثيرًا، فما كانا يختلفان بعد ذلك إلا قليلًا.

الإحسان في الزواج:

ورد إليّ في البريد هذا الكتاب:

حضرة السيد الفاضل:

ضمّني وجماعة من الأصدقاء مجلس جرى فيه الحديث عن صديق لنا عرف امرأة من البغايا فأخذته الرأفة بها فتزوجها، وكان القوم ما بين مستحسن لهذا العمل ومستهجن له، فاتفق رأينا جميعًا أن نكتب إليك بذلك علّك تلقي على هذا الموضوع نظرة من نظراتك الصادقة، والسلام.

أيّها السائل الكريم، إن كان باعث الرجل على الزواج بهذه البغي شهوة يريد قضاءها من امرأة يعشقها ولا يرى سبيلًا إلى طول استمتاعه بها والاستئثار بحظه منها، فقد أخطأ خطأ جمًّا؛ لأن من كان هذا شأنه لا يعنيه إلّا أمر نفسه، ولا يشغله من شؤون تلك المرأة إلا الشأن الذي يرتبط بشهوته، ويتعلق بلذته، فإذا أقفر قلبه من

حبها، وعلم أن فراقها لا يهيج له وجدًا، ورجوعها إلى عيشها السالف لا يثير منه غيرة، فارقها فراقًا هادئًا مطمئنًا لا يمازجه حزن على فسادها، وهنالك تعود تلك المسكينة إلى عشّها الذي طارت منه.

فالرجل الذي يتزوج من البغي قضاء لشهوته وإثارًا للذته؛ لا ينفعها ولا يحسن إليها، لأنّه لا يهذّب نفسها، وعندي أنّه في عمله هذا فاسق لا متزوج،؛ لأنه لم يرَ أنّ الزواج وسيلة من وسائل الاستئثار والتوسع في الاستمتاع ما سمي مهرًا ولا عقد عقدًا.

فإن كان حقًا ما تقول من أنّ باعثه إلى ذلك الرحمة والرأفة والحنان والشفقة فقد أحسن كل الإحسان. العرض أثمن من الحياة، فإن كان يمنح الحياة فاقدها شريفًا، ليت الرجال يتفقون جميعًا على أن يستنقذوا بهذه الوسيلة الشريفة كل امرأة ساقها فقرها إلى البغاء...

لمَ لا يكون بابًا من أبواب الإحسان أن يتفقّد المحسنون من الرجال الفقيرات من النساء فتزوجوا منهن؛ لأنه إحسان، والإحسان لا يجمل إلا إذا أصاب موضعه من الشدة ومكانه من الشقاء!

البغاء للبغي شقاء ما جناه عليها إلا رجل، يهاجم الرجل المرأة ويعدّ لمهاجمتها ما شاء الله أن يعدّه من وعد كاذب، حتى إذا خدعها عن نفسها، نفض يده منها وفارقها فراقًا لا لقاء بينهما من بعده، هناك تجلس في كسر بيتها جلسة الكئيب الحزين، تطلب العيش من طريق الزواج فلا تجد من يتزوجها؛ لأنّ الرجل يسميها ساقط، فها أنت ذا ترى أن شقاء المرأة الساقطة رواية من الروايات المحزنة، وأنّ الرجل هو الذي يمثّل جميع أدوارها، إن أبى الرجل أن يتزوج المرأة بغيًا فليحل بينها وبين البغاء، ولا سبيل له إلى ذلك إلا إذا اعتبر الزواج بابًا من أبواب الإحسان.

أي أنّه يتزوجها لها أكثر ممّا يتزوجها لنفسه، فإن أبى إلّا أن يتزوج من المرأة السعيدة، فليذكر أنّه هو الذي أخذ الشقية من يدها، وساقها إلى مواطن الشقاء، ورماها بيده في هوّة الفسق والبغاء.

لا همجية في الإسلام: [1]

أيّها المسلمون، إن كنتم تعتقدون أنّ الله سبحانه وتعالى لم يخلق المسيحيين إلّا ليموتوا ذبحًا بالسيوف وقطعًا بالرماح، فقد أسأتم بربكم ظنًّا، وأنزلتموه منزلة العابث الذي يبني البناء ليهدمه، ويزرع الزرع ليحرقه، وينظّم العقد ليبدّده، لم يزل الله سبحانه وتعالى مذ كان الإنسان نطفة في رحم أمّه يتعهّده بعطفه وحنانه، ويذود عنه آفات الحياة وغوائلها: نطفة، فعلقة، فمضغة، فجنينًا، فبشرًا سويًا.

إنّ إلهًا هذا شأنه مع عبده، وهذه رحمته به وإحسانه إليه، محال عليه أن يأمر بسلبه الروح التي وهبه إياها، وأنكرتم عليه حكمته في أفعاله وتدبيره في شؤونه وأعماله، في أيّ كتاب من كتب الله، وفي أيّ سنة من سنن أنبيائه ورسله، قرأتم جواز أن يعمد الرجل إلى الرجل الآمن في سربه، فينزع نفسه، ويفجع فيه أهله وقومه، لأنّه لا يدين بدينه.

لو جاز لكل إنسان أن يقتل كل من يخالفه في رأيه ومذهبه، لأقفرت البلاد من ساكنيها، إنّ وجود الاختلاف بين الناس في المذاهب والأديان والطبائع والغرائز سنّة من سنن الكون، ((ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة)).

أيّها المسلمون، ليس ما كان يجري في صدر الإسلام من محاربة المسلمين المسيحيين كان مرادًا به التشفي والانتقام منهم، وإنّما كان لحماية الدعوة الإسلامية أن يعترضها في طريقها معترض، أي أنّ القتال كان ذودًا ودفاعًا، لا تشفيًا وانتقامًا.

لو أنّكم قضيتم على كل من يتديّن بغير دينكم حتى أصبحت رقعة الأرض خالصة لكم، لانقسمتم على أنفسكم مذاهب وشيعًا.

أيّها المسلمون، ما جاء الإسلام إلا ليقضي على مثل هذه الهمجية والوحشية، جاء ليستلّ القلوب من أضغانها، ثم يملأها بعد ذلك حكمة ورحمة، عذرتكم لو أنّ هؤلاء الذين تريقون دماءهم كانوا ظالمين لكم في شأن من شؤون حياتكم، أو يبتدرونكم ببادرة شر، فلا عذر لكم.

أمّا وقد أخذتم البريء بجريرة المذنب فأنتم مجرمون لا مجاهدون، وسفاكون لا محاربون، من أيّ صخرة من الصخور نحتم هذه القلوب التي تنطوي عليها جوانحكم؟ من أيّ نوع من أنواع الأحجار صيّغت هذه العيون التي تستطيعون أن

[1] كتبت لمناسبة ما أشيع من هياج المسلمين على المسيحيين في ولاية أطنة من ولايات الدولة العثمانية وقتلهم إياهم وتمثيلهم بهم في عام 1909.

تروا بها منظر الطفل الصغير والنار تأكل أطرافه؟ لا أستطيع أن أهنئكم بهذا الظفر والانتصار؛ لأن قتل الضعفاء جبن ومعجزة.

أيّها المسلمون، اقتلوا المسيحيين ما شئتم وشاءت لكم وحشيتكم، ولكن حذار أن تذكروا اسم الله على هذه الذبائح البشرية، فالله سبحانه أجلّ من أن يأمر بقتل الأبرياء، فهو أحكم الحاكمين، وأرحم الراحمين!

البخيل:

سألني سائل: ماذا يستفيد الإنسان من حتى بخله على نفسه؟ وأيّ غرض يرمي إليه من ذلك؟ فأجبته بهذا الجواب:

البخل إحدى الملكات النفسية، والملكة صفة راسخة في النفس، تصدر عنها آثارها عفوًا بدون روية ولا اختيار، فكثيرًا ما تعرض لأرباب هذه الملكات عوارض تنتزع بهم إلى الرغبة عن التخلي عنها حينًا، فلا يجدون إلى ذلك سبيلًا، وربّما عرض للبخيل ما يدفعه إلى بذل شيء من ماله، فإذا وضع يده في كيسه وحاول القبض على شيء مما فيه، أحسّ كأنّ تيارًا كهربائيًّا قد سرّ من نفسه إلى يده، فأخرجها صفرًا كما أدخلها، فإنّه يكسر شرّتها أحيانًا إن لم ينتزعها انتزاعًا.

ويحكى أنّ شحيحًا تحركت في قلبه يومًا للشفقة على ابنته الجائعة العارية، فأراد نفسه أن يبذل لها شيئًا من ماله، فتأبّت عليه، علمًا بأنّه لا يستطيع أن يكون كما يريد.

فالوجه في السؤال أن يقال: ما هي الأسباب التي غرست ملكة البخل في نفس البخيل؟ فيكون الجواب عن ذلك: إنّ الأسباب تختلف باختلاف الأشخاص وأطوارهم وأخلاقهم وتربيتهم، ونذكر أهم تلك الأسباب:

الأول، الوراثة: وهي كثيرًا ما تنمو وتتجسم إذا غفلت ولم يعترضها ما يسدّ سبيلها.

الثاني، التربية: إذا نشأ الطفل بين أهل أشحّاء، أخذ أخذهم في الحرص.

الثالث، سوء الظنّ بالله: ذلك أنّ المتديّن إذا أخذت عقيدة القضاء والقدر من نفسه مأخذها رسخ في قلبه الإيمان بأنّ الله سبحانه وتعالى عينًا ساهرة على عباده الضعفاء.

الرابع، النكبات: كثيرًا ما تحلّ بالإنسان نكبات تصهر قلبه وتزعج غريزته من مستقرها، ومن ذلك التي يكون مرجعها قلّة المال، ومن ذلك جديد النعمة الذي ذاق مرارة الفقر، فإنّه مهما حسنت حاله لا تذهب من فمه تلك المرارة، فلا يزال يتملك قلبه وسواس مقلق يخيل إليه ما لا يتخيل.

الخامس، اللؤم: فإنّ النفس إذا خبثت طينتها ولؤم طبعها، كان من أخصّ صفاتها الحقد على الوجود بأجمعه.

السادس، سقوط الهمّة: إذا نشأ الإنسان عالي الهمة طموحًا إلى المعالي محبًّا للذكر الحسن والثناء الجميل، سهل عليه أن يبذل في سبيل ذلك كل ما يستطيع بذله من ذات يده أو ذات نفسه.

السابع، فساد المجتمع الإنسانيّ: ذلك أنّ كثيرًا من الناس قد بلغ بهم حب المال والتعبد له أن صاروا يعظمون صاحبه لا لفائدة يرجونها، خير يطمعون فيه، بل لأنّه ذو مال وذو المال في نظرهم أحق الناس بالمحبة والإعظام.

هذه هي أهم الأسباب التي تألّفت منها رذيلة البخل؛ فإن أغفلنا النظر إليها وسلمنا للسائل صحة سؤاله عمّا يستفيده البخيل من بخله، لأن الله تعالى خلق الإنسان وركب فيه رغبات الشهوات مختلفة، بعضها نفسي، والآخر جسدي؛ فهو لا يزال يتطلبها ما لم يعجز عنها، لم يبقَ لنا إلا أن نتوسل إلى علماء النفس أن يأذنوا لنا بالتوسّع في تفسير معنى الجنون، حتى لا يكون مقتصرًا، كما نتوسل إلى علماء الشرائع أن يضعوا قانونًا لاستخراج المال من خزائن المقترّين كما وضعوا قانونًا لحفظ المال في صناديق المبذرين؛ فإنّ تبذير المال يضرّ قومًا وينفع أقوامًا ، أمّا حبسه فيضر صاحبه، ويضرّ معه الناس أجمعين.

البعوض والإنسان:

جلست ليلة أمس إلى منضدتي وعلّقت قلمي بين أصابعي، وأنشأت أفكر في الموضوع الذي يجمل بي أن أكتب فيه، ولا يظن المولعون باكتناه الحقائق واستشفاف الضمائر من إخواننا الفضوليين أنّني أريد بذلك مراعاة النظير بين سواد المداد وسواد الظلام، وليس في الناس من هو أدرى بدخيلة أمري مني.

لم أكد أفرغ من التفكير في الموضوع حتى شعرت بطنين البعوض في أذني، ثم أحسست بلذعاته في يدي، فتفرّق من ذهني ما كان مجتمعًا وتجمّع من همّي ما كان مفترقًا، طاردته بالمذبّة فما أجدى ذلك نفعًا لأنّه على الطيران أقوى منّي على المطاردة، وفتحت النوافذ لأُخرج ما كان داخلًا فدخل ما كان خارجًا وحاولت قتله فوجدته مبعثرًا! لم أرَ في حياتي أمّة ينفعها تفرّقها ويؤذيها تجمعها غير البعوض.

قلت في نفسي: لو كان البعوض يفهم ما أقول لقصصت عليه قصّتي وشرحت له عذري وسألته أن يمنحني ساعة أقوم فيها بكتابة رسالتي ثم هو بعد ذلك في حلّ من جسمي و دمي ينزل ويمتصّ منهما ما يشاء، ولكنّه لا يسمع ولا يرحم ضراعتي ولا يفهم قيمة المروءة لأنّه ليس بإنسان.

أيّ قيمة لِما يمتصّه البعوض من جسم الإنسان مجتمعًا في جانب ما يمتصّه القاتل من جسم المقتول منفردًا؟

إنّ البعوض في امتصاصه الدم أقل من القاتل ضررًا وأشرف غاية؛ لأنّه إن أذى الجسم فقد أبقى على الحياة ولأنّه يطلب عيشه الذي يحيا به وهذا طريقه الطبيعي الذي لا يعرف سواه ولا يستطيع أن يرى لنفسه غيره ولو استطاع لعافت نفسه أن يكون كالإنسان يتطوع للشر ويتعبد بالضر. إنّي وجدت بين الإنسان والبعوض شبهًا قريبًا في صفات كثيرة أنا ذاكر لك طرفًا وتارك لفطنتك الباقي. البعوض خفيف في وطأته ثقيل في لذعته، فهو كذلك الصاحب الذي يسرّك منظره ويسوءك مخبره!

الجزع:

يا صاحب النّظرات، لي صديق سقط في امتحان الـ"بكالوريا" هذه السنة فأثّر فيه ذلك السقوط تأثيرًا كبيرًا، فهو لا ينفكّ باكيًا متألمًا حتى أصبحنا نخاف عليه الجنون! كلّما عزّيناه يقول: كيف أستطيع معاشرة إخواني ومعارفي، وكيف أستطيع مقابلة والدي وأهلي؟ فهل لك أيّها السيد أن تعالج نفسه بنظرة من نظراتك التي طالما عالجت بها قلوب المحزونين؟؟

خفّض عليك قليلًا أيّها الطالب فالأمر أهون مما تظن، وما أحسبك إلّا عالمًا أنّك لم تسقط من قمة جبل شامخ إلى سفح متحجر فتبكي على شظية طارت من رأسك. إنّك سعيت إلى غرض فإن كنت هيأت له أسبابه وأعددت له عدّته وبذلت له من ذات نفسك

ما يبذل الباذلونَفي مثله، فقد أعذرت إلى الله وإلى الناس وإلى نفسك، ولا جناية من جنايات نفسك عليك، فحرّي بك ألّا تحزن على مصاب لم يكن من أعمال يديك، فما حزنك على فوات غرض كان جديرًا بك أن تترقب فواته قبل وقت فواته؟ مالك تبكي بكاء الواثق بمواتاة الأيام ومطاوعة الأقدار؟

لا تجعل لليأس سبيلًا إلى نفسك، فلعلّ الأمر يعوض عليك في غدك ما خسرت في أمسك، وامضِ لشأنك ولا تلتفت إلى ما وراءك، فإن تمّ لك في عامك المقبل من طلبتك ما أردت فذاك، أولًا، فما فقدت إذ فقدت إلا ورقة كان كلّ ما تستفيده منها أن تشتريَ قيداً لرجلك، إنّ اعتدادك بهذه الورقة وإكبارك إيّاها هذا الإكبار العظيم دليل على أنّك كنتَ تريد أن تجعلها منتهى أملك وغاية همّتك، فاعلم أنّ الله قد خار لك في هذا المصير و ساق إليك من الخير ما لا تعرف السبيل إليه، وما صرف عنك هذه الشهادة المكتوبة في صفحات الأوراق إلّا لتسعى وراء السعادة المكتوبة في صفحات القلوب.

أيّها الطالب، قل لأبيك وأخيك وأهلك وأصدقائك ومعارفك بلا خجل ولا استحياء: إنّ الذي وهبني عقلي لم يسلبنيه، وإنّ الذي صوّر لي أعضائي لم يحل بيني وبين الذهاب فيما خلقته له وأنّ الذي خلقني سوف يهدين، إنّه الرزاق ذو القوة المتين.

النبوغ:

من العجز أن يزدري المرء نفسه فلا يقيم لها وزنًا، عندي أنّ من يخطئ في تقدير قيمته مستعليًا خير ممن يخطئ في تقديرها متدليًا؛ فإنّ الرجل إذا صغرت نفسه في عين نفسه يأبى لها من أعماله إلّا ما يشاكل منزلتها عنده، فتراه صغيرًا في جميع شؤونه وأعماله؛ فإن عظمت نفسه عظم بجانبها كل ما كان صغيرًا في جانب النفس الصغيرة.

كثيرًا ما يخطئ الناس في التفريق بين التواضع وصغر النفس وبين الكبر وعلو الهمّة، فيحسبون المتذلّل المتملّق الدنيء متواضعًا، ويسمّون الرجل إذا ترفّع بنفسه عن الدنايا وعرف حقيقة منزلته من المجتمع الإنساني متكبرًا، وما التواضع إلّا الأدب ولا الكبر إلا سوء الأدب.

إنّ علو الهمة إذا لم يخالطه كبر يزرى به ويدعو صاحبه إلى التنطع وسوء العشرة كان أحسن ذريعة يتذرع بها الإنسان إلى النبوغ في هذه الحياة وليس في الناس من هو أحوج إلى علو الهمة من طالب العلم؛ لأنّ حاجة الأمة إلى نبوغه أكثر من حاجتها

إلى نبوغ سواه من الصانعين والمحترفين، هو البحر الزاخر الذي تستقي منه الجداول والغدران.

فيا طالب العلم، كن عالي الهمة وحذار أن يملك اليأس عليك قوتك وشجاعتك فتستسلم استسلام العاجز وتقول: من لي بسلم أصعد فيها إلى السماء حتى أصل قبّة الفلك فأجالس فيها عظماء الرجال؟

يا طالب العلم، أنت لا تحتاج في بلوغك الغاية التي بلغها النابغون من قبلك إلى خلق غير خلقك ولكنّك في حاجة إلى نفس عالية كنفوسهم وهمّة عالية كهممهم وأمل أوسع من رقعة الأرض. جناحان عظيمان يطير بهما المتعلّم إلى سماء المجد والشرف، علو الهمّة والفهم في العلم. أمّا الفهم في العلم فإليك الكلمة التالية: العلم علمان: علم محفوظ وعلم مفهوم، أمّا المحفوظ فيستوي صاحبه فيه مع الكتاب المرقوم ولا فرق بين أن تسمع من الحفاظ كلمة أو تقرأ في الكتاب صفحة. أمّا المفهوم فهو الواسطة التي إذا جمع المتعلم بينها وبين علو الهمّة طار إلى المجد بجناحين، لن يبلغ المتعلم درجة النبوغ إلّا إذا وضع في العلم الذي مارسه مسألة أو كشف حقيقة، ولا يكون مفهومًا إلّا إذا أخلص المتعلم إليه وتعبّد له وأنس به. لا يزور العلم قلبًا مشغولًا بترقب المناصب وحساب الرواتب، كما يزور قلبًا مقسمًا بين تصفيف الطرّة وصقل الغرة.

البائسات:

زرت منذ أيام حاكم بلدة في منزله، فرأيت بين يديه فتاة في الثانية عشرة من عمرها بائسة عليلة، تشكو ألمًا فيعنقها، وتدير في الحاضرين عيونًا حائرة مضطربة كأنّما هي مركبة على زئبق رجراج؛ فسألت: ما شأنها؟ فعلمت أن أهلها زوّجوها من رجل وحشيّ الخلق والخلق، ثمّ زفوها إليه فحاول أن يفترشها، فامتنعت عليه، فأراد اغتصابها فعجز، فضربها هذا الضرب، ففرّت منه إلى منزل أهلها فنقموا منها، وأعادوها إلى منزل زوجها، وهنالك عاد زوجها إلى عادته معها، فعادت هي إلى فراراها، فعاد أهلها إلى قسوتهم وجبروتهم. فلما أعياها الأمر خرجت إلى الطريق العامّة، حتى رفع أمرها إلى الحاكم، فأمر باستدعائها، وآواها في منزله، وما فرغ من هذه القصة حتى رفعت إليه حادثة أخرى تشبه الحادثة الأولى من جميع وجوهها، إلّا أنّ الزوج في هذه المرّة خدع زوجه عن نفسها وسقاها مخدرًا وعقرها.

إنّ المرأة المصريّة شقيّة بائسة، ولا سبب لشقائها وبؤسها إلا جهلها وضعف مداركها، إنّها لا تحسن عملًا، ولا تعرف بين يديها سلعة تتّجر بها وتقتات منها إلّا قلب الرجل، ودون امتلاكها هذا القلب القاسي المتحجّر أهوال عظام.

متى بلغت الفتاة سن الزواج استثقل أهلها ظلّها، ورأوا أنّها عالّة عليهم، وأن لا حق لها في العيش في منزل لا يستفيد من عملها شيئًا، وودّوا لو طلع عليهم أيّ خاطب كان، يحمل آية البشرى في جبينه بالخلاص منها.

وإن كانت ذات جمال أو مال، فقد استوثقت لنفسها وأمنت آلام الهجر وفجائع التطليق، وإلّا فهي تقاسي كلّ صباح ومساء في الحصول على الحسن المجلوب، وهي فوق ذلك تنتظر من فمّ زوجها في كل ساعة كلمة الطلاق، كما ينتظر القاتل من فمّ قاضيه كلمة الإعدام.

ليست كلمة الإعدام من قبيل الاستعمال المجازي، فلا أنسى ليلة زرت فيها صديقًا لي، فرأيت عند منزله امرأة بائسة، فسألتها عن شأنها فأخبرتني أنّها مطلقة من زوجها، فجاءت إلى هذا الصديق تستعين به على أمرها، فخفّفت أنا والصديق شيئًا من آلامها فانصرفت؛ وفي صباح تلك الليلة سمعنا أن امرأة فقيرة ماتت بحمّى دماغيّة، فسألنا وعلمنا أنّها هي، وأنّها ماتت شهيدة الزوجية الفاسدة.

أيّها الرجل، إن كنت زوجًا فلا تطردها من منزلك، وإن كنت أبًا فهذه فلذة كبدك، فلا تضق بها ذرعًا.

ويا أيّها المحسنون، والله لا أعرف لكم بابًا في الإحسان تنفذون منه أوسع من باب الإحسان إلى المرأة.

البيان:

قال لي أحد الوزراء ذات يوم: "إنّي لتأتيني أحيانًا رقاع الشكوى فأكاد أهملها؛ لِما تشتمل عليه من الأساليب المنفرة، لولا أنّ الله تعالى يلهمني نيّات كاتبيها، وأين يذهبون، ولولا ذلك لكنت من الظالمين".

ذلك ما يراه القارئ في كثير من المخطوطات، هزل في موضع الجدّ، وجدّ في موضع الهزل، ويكتب في الحوادث الصغار ما يعجز عن كتابة مثله في الحوادث الكبار.

ذهب الناس في معنى البيان مذاهب متشعبة، وليس البيان إلا الإبانة عن المعنى القائم في النفس، وتصويره تصويرًا صحيحًا لا يتجاوزه، فإن علقت به آفة تينك الآفتين فهي العي والحصر. جهل البيان قوم فظنّوا أنّه الاستكثار من غريب اللغة، ونادر الأساليب فأغصوا بها صدور كتابتهم، وجهلة آخرون ظنّوا أنّه الهذر في القول، والتبسّط في الحديث، واقعًا ذلك من حال الكلام ومقتضاه حيث وقع، وهم يحسبون أنّهم يحسنون صنعًا.

يخيل إليّ أنّ الكتّاب في هذا العصر يكتبون لأنفسهم أكثر مما يكتبون للناس، الكلام صلة بين متكلّم يفهم، وسامع يفهم، فإن أردت أن تكون كاتبًا فاجعل هذه القاعدة في البيان قاعدتك.

ولا أدري كيف يستطيع الكاتب أن يكون كاتبًا عربيًّا قبل أن يطّلع على أساليب العرب في أوصافهم ونعوتهم، وقبل أن يعرف كيف كانوا يعظون وينصحون ويتغزلون وينسبون، وبأيّة لغة يحاول أن يكتب ما يريد إن لم يستمد تلك الروح العربية استمدادًا يملأ ما بين جانحتيه حتى يتدفق مع المداد من أنبوب يراعته على صفحات قرطاسه.

إنّي لأقرأ ما كتبه الجاحظ وابن المقفع وأمثالهم من كتاب العربية الأولى، ثمّ أقرأ ما خطّه هؤلاء الكاتبون في هذه الصحف فأشعر بما يشعر به المتنقل من غرفة محكمة النوافذ، إلى جو يسيل قرًّا وضرًّا؛ ذلك لأنّي أقرأ لغة لا هي بالعربية فاغتبط بها، ولا هي بالعاميّة فألهو بأحماضها وجفونها.

رأيت أكثر الكاتبين في هذا العصر بين رجلين: رجل يستمدّ روح كتاباته من مطالعة الصحف وما يشاكلها في أساليبها من المؤلفات الحديثة، وطالبٌ قصارى ما يأخذه من أستاذه: نحو اللغة وصرفها، وبديعها وبيانها، وغير ذلك من آلاتها وأدواتها، أمّا روحها وجوهرها فأكثر أساتذة البيان عنده علماء غير أدباء، وعندي لا فرق بين أستاذ الأخلاق وأستاذ البيان، فكما أنّ طالب الأخلاق لا يستفيدها إلّا من أستاذ كملت أخلاقه وسمت آدابه، كذلك طالب البيان لا يستفيده إلا من أستاذ مبين. وبعد، فإنّي لا أرى لك يا طالب البيان العربي سبيلًا إليه إلا مزاولة المنشآت العربية منثورها ومنظومها، فإن رأيت أنّك قد شغفت بها وكلّفت بها، فاعلم أنك قد أخذت من البيان بنصيب. ولا تحدّثك نفسك أنّي أحملك على مطالعة المنشآت العربية لأسلوب تسترقّه أو تركيب تختلسه، فإنّي لا أحب أن تكون سارقًا أو مختلسًا، وإنّما أريد أن تحصل لنفسك ملكة في البيان راسخة تصدر عنها آثارها عفوًا بلا تكلف.

فاحذر أن تقع في إحدى السوأتين: فساد المعاني واضطرابها، أو هجنة التراكيب وبشاعتها، أو تكون واحدًا منهم، أو أن تصدّق ما يقولونه في تلمّس العذر لأنفسهم من أنّ اللغة العربية أضيق من أن تتسع لجميع المعاني المستحدثة، وليس الشأن في عجز اللغة وضيقها، وإنّما الشأن في عجز المشتغلين بها عن الاضطراب في أرجائها، وكل ما يعد عليها من الذنوب أنّها لا تشتمل على أعلام لبعض هذه الهنات المستحدثة، وهو في مذهبي أهون الذنوب وأضعفها شأنًا، ما دمنا نعرف وجه الحيلة في علاجه بالاشتقاق إن وجدنا السبيل إليه، أو التعريب إن عجزنا عن الاشتقاق.

واعلم أنّه لا بدّ لك من حسن الاختيار فيما تريد أن تزاوله من المنشآت العربية؛ لأنّ حسن الاختيار طلبة تتعثر بين يديها الآمال، فالجأ إلى فطاحل الأدباء، فإن فعلت وكنت ممّن وهبهم الله ذكاء وفطنة، عدت وبين جنبيك ملكة في البيان زاهرة، تناثر الورود والأنوار من حديقة الأزهار.

السريرة:

لو كشف للإنسان عن سريرة الإنسان لرأى منها ما يرى الأعمى من غرائب هذا الكون وعجائبه حين تدركه رحمة الله بعد طول محنته، تتراءى السريرة في ظاهرها كأنّها أديم السماء أو صفحة الماء، يعجز المرء عن رؤية الهباء فيتريث ريثما تمجّ الشمس لعابها.

وقف آدم أمام باب السريرة يوم الشجرة يعالج فتحه فاستعصى عليه، ثم وقف بنوه من بعده موقفه فحجزوا عجزه.

إنّك لترى الرجل يتلألأ جبينه تلألؤ الكواكب في جنح ليل مبرد، ويفتر ثغره عن الأنوار افترار الأكمام عن الأزهار، وإنّك لترى الصديق فيعجبك منه الحديث الحلو، وثغره المبتسم، ولو كشف لك من نفسه ما كشف له منها لوددت لو أن تيسّر لك أن تبتاع أقدام السليك[٢] بجميع ما تملك يدك ففررت من وجهه.

لولا ما أسدل الله على السرائر من الحجب لبدّلت الأرض غير الأرض، وكان للكون نظام غير هذا النظام، لو علم الجند أنّهم لا يحاربون إلّا ليضعوا "نيشانًا" في صدر القائد، لما دلت الدول، ولضعف ظهر الأرض عن حمل ما فوقه من بني الإنسان. ولو

[٢] السليك: رجل معروف بسرعة عدوه في العرب.

علم جهلة المتدينين أنّ أكثر زعماء الأديان إنّما يشترون منهم عقولهم بالقليل من المدهشات الدينية والأحلام النفسية، لضعفت أصوات النواقيس، وقصرت قامات المنائر. ولو علم الابن أنّ أباه يحبّه لما يرجوه من منفعته في شيخوخته، وأنّه إنّما يعجب بنفسه في إعجابه به، لضعفت صلة الود بينه وبينه، ولو علمت الزوجة أنّ زوجها يحبّ منها جشمها أكثر مما يحب من نفسها، لما وثقت بودّه ولما كان للمنازل سقوف تظل الأسرة والمهاد.

زيد وعمرو:

أراد داود باشا –أحد وزراء تركيا في العهد القديم– أن يتعلّم اللغة العربية، فأحضر أحد علمائه، وأخذ يتلقى عنه علومه عهدًا طويلًا، فكانت نتيجة عمله ما ستراه، سأل شيخه يومًا: ما الذي جناه عمرو من الذنوب حتى استحقّ أن يضربه زيد كل يوم ويبرح به هذا التبريح المؤلم؟ وهل بلغ عمرو من الذل والعجز منزلة من يضعف عن الانتقام لنفسه، وضرب ضاربه ضربة تقضي عليه القضاء الأخير؟

سأل شيخه هذا السؤال وهو يضرب الأرض بقدميه؛ فأجابه الشيخ: ليس هناك ضارب ولا مضروب يا مولاي، وإنّما هي أمثلة يأتي بها النحاة لتقريب القواعد من أذهان المتعلمين. فلم يعجبه هذا الجواب، فغضب عليه وأمر بسجنه، ثم أرسل إلى نحوي آخر، فسأله كما سأل الأول، وأجابه بمثل جوابه، فسجنه كذلك، ثم مازال يأتي بهم واحدًا بعد واحد، حتى امتلأت السجون وأصبحت هذه القضية المشؤومة الشغل الشاغل، ثمّ بدا له أن يستوفد علماء بغداد، فأمر بإحضارهم، وكان رئيس هؤلاء العلماء بمكانة من الفضل، فلمّا اجتمعوا في حضرة الوزير أعاد عليهم ذلك السؤال بعينه، فأجابه رئيس العلماء: إنّ الجناية التي جناها عمرو يستحق أن ينال لأجلها من العقوبة أكثر ممّا نال، وأقبل محدّثه يسأله: ما هي جنايته؟ فقال له: أنّه هجم على اسم مولانا الوزير واغتصب منه الواو، فسلّط النحويون عليه زيدًا يضربه كل يوم جزاء وقاحته -يشير إلى زيادة واو عمرو وإسقاط الواو الثانية من داود– فأعجب الوزير بهذا الجواب كلّ الإعجاب، وقال لرئيس العلماء: أنت أعلم من أفلته الغبراء، فاقترح عليّ ما تشاء، فلم يقترح عليه سوى إطلاق سبيل العلماء المسجونين.

لا ينال المتعلّم حظّه من العلم إلّا إذا استطاع تطبيقه على العمل والانتفاع به في مواضعه ومواطنه التي وضع لأجلها، ولن يستطيع ذلك إلا إذا استكثر له معلّمه من الأمثلة والشواهد، وإن أكثر المتعلمين في مدرسة الأزهر أبعد الناس عن القدرة على المطابقة، لما حال بينهم وبين ذلك من الوقوف عند المثل الواحد لكل قاعدة من قواعد العلم!

علامَ يتعلّم الطالب النحو والصرف إن عجز أن يقرأ صحيحًا كلّ كتاب وكل صحيفة؟ عجيب جدًا أن يفهم الصانع الأمّي أنّ العلم للعمل، فلا يتعلم النجارة إلّا ليصنع الأبواب والصناديق، وإن يجهل المتعلم هذه القضية الضرورية، فلا يهمه من العلم إلّا الاستكثار من المعلومات والقواعد.

ما دامت مدرسة الأزهر على هذه الحال من أسلوب التعليم العقيم فليس بمقدور لها أن ينبغ منها العلماء، فويل للعلم من العلماء.

أبو الشمقمق:[٣]

إنّ كثيرًا من الفقراء لم تمتد يد الفقر إلى رؤوسهم، كما امتدت إلى جيوبهم، فهم يدركون كما يدرك الأغنياء. ولقد جلست في منزلي صبيحة يوم مع قوم من الماديين الذاهبين الذين ملأ المال فراغ أذهانهم حتى أنساهم كل شيء وأنساهم أنفسهم قبل ذلك، فأخذوا يتجاذبون أسلاك الأحاديث الذهبية.

كل هذا وأبو الشمقمق جالس ناحية يخزر طرفه ويهزّ رأسه، ويئنّ من أعماق قلبه أنينًا يكاد يسمع فيه السامع قول الشاعر:

فيا لك بحرًا لم أجد فيه مشربا على أنّ غيري واحد فيه مسبحا

فما هو إلّا أن قضوا لبانتهم من الكلام المملول، والحديث المعاد حتى قاموا يطيّرون الآمال وراء الأموال. فأشرت إلى أبي الشمقمق أن يختلف ففعل، فسألته مالك لم تشترك معنا فيما كنّا فيه، فأجاب: إنّي أكره الفضول في الحديث وقد فرّق المقدار بيني وبينكم في المال، فلا أشترك في المقال، فقلت: ألا يعجبك يا أبا الشمقمق حديث النهضة الحديثة التي نهضتها الأمة المصرية في عهدها الأخير وأنت فرد من أفرادها، فقال: والله لا أدري أتكلمني بلسان الصوفيّة؟ ولستُ بصوفيّ، أم بلغة الفلاسفة؟ ولا أفهم

[٣] هو في الأصل رجل أديب من أدباء المولدين كان شديد الفقر.

للفلسفة معنى، فهل لك أن تعفيني من الجواب على هذه المعميات وتزن كلامك على مقدار عقلي وتحدّثني فيما يتناوله سمعي وبصري؟ فقلت: أنا لم أخرج بك عن المألوف المعروف، وحسبك أن ترى تقدّم الأمة المصريّة في ثروتها وعمرانها، فتسعد بسعادتها وتهنأ بهنائها، فقال: إن لم تبيّن لي سهمي من هذه السعادة ونصيبي من ذلك الارتقاء فلا أصدق سعادة، ولا أتصور ارتقاء، وما دمت أرى أنّ لي هُويّة مستقلة عن هُويّة سواي من السعداء، وما دمت لا أرى واحدًا بينهم يلبس معي ردائي الممزّق، فهيهات أن أسعد بسعادتهم، وهيهات أن أفهم معنى قولك أنت الأمة والأمة أنت. فقلت: إنّ الغيث إذا نزل يسقي الخصيب والجديب، وينتظم من الأرض الميّت والحي. فقال: كل سماء فيها هذا الغيث إلا سماء مصر فإنّي أراه:

كبدر أضاء الأرض شرقًا ومغربا وموضع رجلي منه أسود مظلم

مالي وللروض الذي لا أستنشق روحه وريحانه، والقصر الذي لا أدخله مالكًا ولا زائرًا، لقد حبّب إليّ الظلام حتى تمنيت دوامه لألبس من ثوبه الطبيعي ما يكفيني مؤنة الرتق والفتق، وبعد: فما هو الارتقاء الذي تزعمه وتزعم أنّه يعنيني ويشملني؟ هل خفقت قلوب الأغنياء رحمة بالفقراء؟ فقلت: نعم.. أما ترى الأموال التي يتبرّع بها الأغنياء للجمعيات الخيرية، والتي ينفقها المحسنون على بناء المدارس والمكاتب والمستشفيات؟ فقال: إنّ هذه التي تسميها مكارم، لا يسميها أصحابها إلا مغارم.

مالي وللمدارس والمستشفيات، وأنا جوعان خبز لا جوعان علم، أنا رجل ضعيف البصر ضعيف القوة كما ترى... فلا قدرة لي على العمل وعندي صبية صغار ليس بينهم من يستطيع عملًا... ولقد كان لي في الزمن الذي تذمونه، منفسح عظيم في منازل المحسنين، ومورد نمير من صدقاتهم وهباتهم، أمّا اليوم فأبيتُ طاويًا، وأُصبح شاكيًا، وأغدو راجيًا وأروح يائسًا.

وهنا أرسل من جفنيه دمعة، لأنّه لم يبكِ في غير خلوته غير هذه المرة، ثم نهض ومدّ يده إليّ مودّعًا، فمسحت بيمين دمعة واحدة من دموعه الكثيرات.

دورة الفلك:[٤]

أيّها القصر، أين الكوكب الزاهر الذي كان ينتقل في أبراجك؟ أين الملك القادر الذي كان يطلع شمسًا في صباحك وبدرًا في مسائك؟ أين الأعلام والبنود تخفق في شرفاتك؟ والقواد والجنود تخطر في عرصاتك؟

أين الصوت الذي كان يجلجل فيقرع أذن الجوزاء؟ ويهدر فتلتفت عيون السماء؟ أين الفلك الذي كان يدور بالسعد والنحس، والنعيم والبؤس، والرفع والخفض، والإبرام والنقض؟

أيّها السجن: حل بأرجائك اليوم ملك تضيق به الدنيا، فكيف وسعته؟ رفقًا به لا تزعجه، ولا تحرج صدره، واعطف عليه عطف المرضعات على الرضيع، وارحم هذا الجلال الذاهب، والعز الزائل، والرأس الذي بيّضته حوادث الدهور، والظهر الذي قوسته أيدي المقدور.

أيّها الدهر، ألا تستطيع أن تنام عن الإنسان لحظة واحدة؟ ألا تستطيع أن تسقيه كأس السرور خالصة، لا يمازجها كدر، ولا يشوبها عناء؟

أيّها الرجل المودع، كان ارتفاعك عظيمًا، فوجب أن يكون سقوطك عظيمًا، لا تأسَ على ما فاتك، فإنّما كان وديعة من ودائه الدهر، أعاركها برهة من الزمان ثم استردها.

قضى الله أن يقيم في كل حين لهذا العالم الغافل عبرة من العبر تزعجه من رقدته، وتوقظه من غفلته، فكنت أنت عبرة هذا الدهر وموعظته.

[٤] كتبت بمناسبة سقوط السلطان عبد الحميد ملك تركيا

تأبين فولتير:[٥]

في مثل هذا اليوم، منذ مائة عام، مات الرجل العظيم، مات الرجل الخالد، مات فولتير.

ما مات فولتير حتى احدودب ظهره تحت أثقال السنين الطوال، مات فولتير مرذولًا محبوبًا في آنٍ واحد يبغضه الحاضر لأنّه يجهله، ويحبّه المستقبل لأنّه عرفه. أنّ في هاتين العاطفتين -البغض والحب– سرًا عظيمًا من أسرار المجد العظيم، لذلك الرجل العظيم.

كان وهو على سرير الموت محفوفًا بعاطفتين مختلفتين شكلًا، متفقتين معنى، لأنّهما جميعًا في سبيل مجده وفخاره، كان فولتير رجلًا وأكبر من رجل، إنّه عاهد نفسه على إنجاز عمل عظيم فأنجزه ولم يخلف وعده.

إنّنا أتينا هنا لفصل الخطاب في المسألة الاجتماعية الكبرى، جئنا لنرفع شأن المدنية، ونكرّم الفلسفة، وجملة القول أنّنا ما اجتمعنا هنا إلّا لنمجّد العاطفة الشريفة السامية، عاطفة السلام العام، إنّا نمجّد السلام حبًا في المدنية، فالسلام فضيلة المدنية، والحرب رذيلتها.

لقد كان شأن المجتمع الإنساني قبل الثورة الفرنسية على هذا المنال: الشعب في المنزلة الدنيا، وفوق الشعب الدين والقضاء، وهذا يمثّله (القضاة) وذاك يمثّله "الإكليروس". كان الشعب جهلًا! والدين رياء! والقضاء ظلمًا!

إن كنت في شكّ ممّا أقول فإنّي أقصّ عليكم من حوادث ذلك التاريخ أرى فيهما غناء ومقتنعًا. في 13 أكتوبر سنة 1761 وجد شاب مصلوبًا في الطبقة الأرضية من بيت في مدينة "تولوز" فهاج الشعب ولغط "الإكليروس" وبحث القضاة، فكانت النتيجة أن كان الشاب منتحرًا، فسمّي قتيلًا، فكان والده بريئًا، فسمي قاتلًا، هكذا أراد الدين وأرادت مصلحته أن يهلك والد الفتى لأنّه كان بروتستانتيًا ولأنّه كان يمنع فتاه أن يتديّن بالكثلكه، هكذا قضى القضاء وهكذا كانت النتيجة.

شهر مارس سنة 1763 سيق إلى الميدان العام شيخ أبيض الشعر "جان كالاس" ثم جرّد من ثيابه وطرح على دولاب العذاب وشدّت إليه أطرافه وترك رأسه متدليًا،

---

[٥] هي ترجمة خطبة خطبها "فكتور هيجو" في باريس في حفلة تأبين فولتير الكاتب المشهور سنة 1878م بعد مرور قرن على وفاته ، مع بعض تصرف.

ثلاث رجال تلوّثت أيديهم بدم القتيل؛ كاهن يحمل الصليب، وجلّاد يحمل القضيب، وقاضٍ يحمل في صدره عهد القوم إليه بالتنكيل والتعذيب. على هذه الصورة مات جان كالاس.

وما هي إلّا أيام قلائل حتى عرف الناس أنّ الفتى مات منتحرًا، لا مقتولًا فحكموا ببراءة الشيخ بعد أن نفّذ فيه سهم القضاء، وماذا يعنيه بعد الموت، أمات ظالمًا أم مظلومًا.

أحزنك هذا المنظر يا فولتير، وآلم نفسك، فصحت صيحة الرعب والفزع، فكانت تلك الصيحة الحجر الأول في بناء مجدك الخالد العظيم.

حدثت تلك الحوادث على مشهد من المجتمع المهذب الراقي، وفي حياة حافلة بالسعادة، حدث ذلك وأيام البلاط أعياد، و"فرسايل" تتلألأ حسنًا وبهاء ورونقًا وماء، حدث ذلك وباريس تتجاهل ما يجري حولها.

كان المجتمع في ذلك التاريخ مؤلفا من قوى عظيمة هائلة، قوة البلاد، وقوة المال، وقوة الشعب المائج المتدفع، تقدّم فولتير وحده، وأثار حربًا عوانًا على هذا العالم المؤلف من تلك القوى المختلفة. أتدرون ما كان سلاحه؟ ما كان له سلاح غير القلم؛ فبالقلم حارب، وبالقلم انتصر.

انتصر فولتير، فولتير وقف وحده تلك المواقف المشهودة، فولتير أدار وحده رحى تلك الحرب الهائلة، حرب العلم والجهل، والعدل والظلم، والعقل والهوى. فتمّ على يديه الغلب للخير على الشر، وفاز فوزًا عظيمًا.

أقف هنا قليلًا إجلالًا لابتسامة فولتير، أفضل مزايا الرجل الحكيم أن يملك نفسه عند الغضب، وكذلك كان فولتير، كنت تراه عابسًا مقطبًا، فما هي إلّا كرة الطرف أن ترى فولتير الضاحك المبتسم في مكان فولتير العابس المقطب، تكاد تكون ابتسامته ضحكًا، لولا حزن الحكيم وهم العاقل، فلنمجّد تلك الابتسامة التي كانت أشعتها كأشعة الفجر، نعم الابتسام، ابتسام أنار الطريق للعدل والحق والصلاح، وبدّد ظلمات التقليد.

إنّ ابتسامة "فولتير" أنشأت هذه الهيئة الاجتماعية وزينتها بالاخاء والمودة والحرية والمساواة، ولسوف يأتي ذلك اليوم العظيم يوم الرحمة بالضعفاء، والعفو عن الخاطئين فيبتسم فولتير في السماء ابتسامة تتلألأ بين لآلئ النجوم.

إنّ التوسط وحفظ الموازنة بين الأخلاق هو القانون العقلي للإنسان، حتى لا تهبط به كفّة وتعلو أخرى، وحتى لا يهلك بين عاطفتي الحب والبغض، وإنّ الفلسفة هي

الاعتدال وامتلاك أزمة النفس في جميع مواقفها ومذاهبها، إلّا أن حبّ الحق يجب أن يكون دائمًا في مرتبة الغلو حتى تهب عاصفته قوية هائلة على الشرور والآثام فتذهب بها.

يعيش المرء بين سعادتين من حاضره ومستقبله، أمّا الأولى فيكفلها العدل، وأمّا الثانية فيحرسها الأمل؛ لذلك يحب الناس القاضي العادل، والكاهن الصالح.

إنّ الرجل العظيم لا يظهر في المجتمع وحيدًا إلا قليلًا، وكلما كثر العظماء حوله ارتفع شأنه وعلا ذكره، وكان فولتير في غابة من العقول الكبيرة، هم الذين علموا الناس النظر في حقائق الأشياء، وعلموهم أن صلاح القلب أثر من آثار صلاح العقل، فأجادوا وأفادوا.

مات أولئك القوم العظماء، وهوت من أفقها كواكبهم، ولقد كانوا في حياتهم جسدًا وروحًا، أمّا الجسد فقد طواه القبر، وأمّا الروح فهي الثورة التي تركوها من بعدهم.

إنّ المجتمع الإنساني أنكر على القوة حقها المزعوم، وأتى بالتاريخ شاهدًا على دعواه، فقضى عليها، فلتصرح بالحقيقة المقررة الثابتة، ولنحتقر الحرب أشد الاحتقار، إنّ الحرب المباركة لا أثر لها في الوجود، إنّ منظر الدماء والأشلاء أفظع منظر.

لا يعقل أن يكون الشرّ طريق الخير، وأن يكون الموت وظيفة الحياة، أيّتها الأمهات الجالسات حولي: خففن من أحزانكن فلقد أوشكت يد الحرب أن تكفّ عن اختلاس أفلاذ أكبادكن، آه... إنّنا لا نستطيع مع الأسف أن نخدع أنفسنا، وننكر أنّ الساعة التي نحن فيها تشتمل على بضع دقائق محزنة تكدر صفوها، لا تزال في مرآة السماء الصافية سحابة سوداء، إنّ الشعب لم يقضِ كل أربه من السعادة لأنّ الحرب لا تزال باقية.

لنقف في طريق الدماء المتدفقة لنقول للسفاكين بصوت عال: كفى، إنّها همجية، إنّها وحشية، إنها تشوّه وجه المدنية الجميل، إنّ أسلافنا من الفلاسفة رسل الحق إلى البشر.

فلنضرّع إليهم في تذكارهم هذا أن يتداركوا الفتنة قبل وقوعها، وينادوا: إنّ الحياة ملك الإنسان، وعزيزي عليه أن تسلب منه، وأنّ التمتع بالحرية حق من حقوق العقول والأفكار، فلا يعترض سبيلها معترض، إنّ النور لا أثر له بين أضواء القصور، فلنطلبه بين ظلمات القبور.

العلماء والجهلاء:

لا تحسبن الفلسفة الاصطلاحية مطلب من المطالب التي لا ترام، إنّ بين من نسميهم العلماء ومن نسميهم الجهلاء ذلك الفرق العظيم الذي يتصوره الناس عندما يرون التفريق بينهما، ومن نظر إلى الأشياء نظرًا نافذًا وجد أنّ المعاني الصحيحة، والقضايا الكونية المتعلقة بالخير والشر، يشترك في العلم بها الناس جميعًا عامتهم وخاصتهم؛ لأنّ العلم ينبوع يفور من الداخل، لا سيل يتدفّق من الخارج، وما وظيفة العلم إلّا استثارتها من مكانها وبعثها من مراقدها.

وآية ذلك أنّك لا تجد حكمة من الحكم التي يفخر بها العلماء ويعدونها مظهر علمهم وآية فضلهم، إلّا وترى في ألسنة العامة وشوارد أقوالها وأمثالها ما يرادفها ويشاكلها.

ليس هذه الغبطة التي نراها تعلق بنفوسهم عندما يتلقون أحاديث الخاصة من أجل أنّهم علموا ما لم يكونوا يعلمون، بل لأنّهم ظفروا بمن يترجم عن أفكارهم، ووجدوا في أنفسهم لذة الأنس بأفكار تشابه أفكارهم وآراءهم.

فلا تبالغ في تقدير فلسفة الفلاسفة وعلم العلماء، ولا تنظر إليهم نظرًا يملأ قلبك رهبة، ولا تكن ممن يقضون حياتهم أسرى العناوين وعبيد الألقاب.

إنّ في وقوف طلاب الحقيقة في كل دهر وعصر في مفارق الطرق ورؤوس المسالك حيارى؛ لدليلًا على أنّ الفلاسفة والحكماء والعلماء كلمات غير مفهومات وأسماء بلا مسميات، وإنّ حقائق الأشياء قد استأثر الله بعلمها واحتجنها من دون عباده، ولم يمنحهم إلا بلة تزيدهم وجداً كلّما وجدوا بردها و تملأ قلوبهم شوقًا كلّما تذوقوا طعمها.

ضريبك في بني الدنيا كثير وعزّ الله ربّك من ضريب

وما العلماء والجهلاء إلّا قريب حين تنظر من قريب

الرجل والمرأة:

يعتقد كثير من الناس أنّ الرجل والمرأة سواء في الذكاء والعقل، وعندي أنّهم أصابوا في الأولى وأخطؤوا في الأخرى.

تستطيع المرأة أن تجاري الرجل في سرعة الفهم وحضور البديهة، ولا تستطيع أن تجاريه في الأناة والرفق وامتلاك هوى النفس، والأخذ بفضيلة الصبر على ما تكره وعما تحب.

تستطيع المرأة أن تدرك ما يدركه الرجل من الشؤون والأطوار، وأن تستخرج كما يستخرج المجهولات من المعلومات، ولكنّها لا تستطيع أن تنتفع بمعلوماتها كما ينتفع؛ ولأنّها لها قلبٌ صغيرٌ لا يقوى على احتمال ما يحتمله عقله الكبير.

يمشي الرجل وراء عقله فيهديه، وتمشي المرأة وراء قلبها فيضلّها، لا تعجب إن قلت لك: أنّ الذكاء غير العقل، فاللصوص والمحتالون أذكياء، وليس بينهم عاقل واحد؛ لأنّهم يؤدون أنفسهم موارد التلف والهلاك، وكثيرًا ما يكون الذكاء السديد داعية الجنون، وبعد، فالذكاء في رأس الإنسان كالسيف في يد الشجاع... وكثيرًا ما يضرب الشجاع عنق نفسه بسيفه إذا كان طائشًا أهوج لا يملك نفسه في مواقف الحزن أو الغضب.

فما يغني المرأة ذكاؤها إذا لم يكن وراءه عقل يملكها ويصرفها، سيثقل هذا الحكم على نفوس النساء ونفوس الرجال الذين يجاملونهن... لولا أنّ الرجل أعقل من المرأة ما كان له عليها هذا السلطان...

القوي يملك على الضعيف بحكم الطبيعة كلّ شيء حتى نفسه وهواه، وكذلك كان شأن الرجل مع المرأة، الرجل أخو المرأة وقسيمها في الرحم والمهد، والأبوة والأمومة، ولكنّه وجد في نفسه فضلًا عليها في قوة العقل والتدبير... ملك عليها جسمها لأنّه حجبها عن النور، وملك عليها نفسها لأنّه ألقى في روعها أنّ ذنبها في جريمة الفسق المشتركة بينه وبينها أكبر من ذنبه، وأصبحت تنظر إلى هذه القوانين الجائرة التي وضعها لها، كما ينظر إليها هو بعين الإجلال والإعظام.

ولو كان للمرأة ما للرجل من قوة العقل؛ لاستطاعت هي أن تحجبه في المنزل، وأن تسن له القوانين الجائرة والشرائع الفاسدة فيؤمن بها إيمانه بالإله المعبود كما صنع هو بها في جميع ذلك فبلغ منها ما أراد.

وجملة القول: أنّ حكم المجتمع الإنساني بإدانة المرأة الزانية وبراءة الرجل الزاني حكم ظالم، ولو أنّه أنصفها لعرف فرق ما بينهما في القوة العقلية، فإن أردنا أن تنال المرأة حقها من الرجل، و أن تنتصف منه، فليس سبيلها إلى ذلك المغالبة والمصارعة، فإنّها أضعف منه جسمًا وعقلًا، بل السبيل إليه أن نعلّمها لتعرف كيف تستعطفه وتسترحمه، وكيف تحمله على إجلالها وإعظامها، وأن تعلمه ليستطيع أن يكون شخصًا كريمًا، وإنسانًا رحيمًا.

الدعوة:

ما من قائم يقوم في مجتمع من هذه المجتمعات البشرية داعيًا إلى ترك ضلالة من الضلالات أو بدعة من البدع، إلا وقد آذن نفسه بحرب لا تخمد نارها. لذلك كان الدعاة في كلّ أمة أعداءها وخصومها؛ لأنّهم يحاولون أن يرزؤوها في ذخائر نفوسها، ويفجعوها في أعلاق قلوبها.

الدعاة أحوج الناس إلى عزائم ثابتة، حتى يبلغوا الغاية التي يريدونها أو يموتوا في طريقها، الدعاة الصادقون لا يبالون أن يسميهم الناس خونة أو جهلة؛ لأنّ ذلك ما لابد أن يكون.

الدعاة الصادقون يعلمون أن محمدًا -صلّى الله عليه وسلّم- عاش بين أعدائه ساحرًا كذّابًا، ومات سيّد المرسلين، فهم يحبون أن يكونوا أمثال هؤلاء العظماء أحياءً وأمواتًا.

سيقول كثير من الناس: وما يغني الداعي دعاؤه في أمّة لا تحسن به ظنًّا، إنّه يضر نفسه من حيث لا ينفع أمتّه؛ فيكون أجهل الناس وأحمق الناس.

هذا ما يوسوس به الشيطان للعاجزين الجاهلين، فجمدت الأذهان، وأصبحت العقول في سجن مظلم لا تطلع عليه الشمس ولا ينفذ إليه الهواء.

لا يستطيع الباطل أن يصرع الحق في ميدان؛ لأن الحق وجود والباطل عدم، محال أن يهدم بناء الباطل فرد واحد في عصر واحد، وإنّما يهدمه أفراد متعددون، في عصور متعددة، الجهلاء مرضى والعلماء أطباء.

وبعد، فقليل أن يكون الداعي في الأمة الجاهلة حبيبًا إليها إلّا إذا كان خائنًا في دعوته، والدعاة في هذه الأمّة كثيرون ملء الفضاء، وكظة الأرض

والسماء، ولكن لا يكاد يوجد بينهم داعٍ واحد؛ لأنّه لا يوجد بينهم شجاع واحد.

رأيت الدعاة في هذه الأمة أربعة: رجلًا يعرف الحق ويكتمه، عجزًا وجبنًا، فهو ساكت طول حياته لا ينطق بخير أو شر، ورجلًا يعرف الحق وينطق به ولكنّه يجهل طريق الحكمة والسياسة في دعوته، ورجلًا لا يعرف حقًّا ولا باطلًا، فهو يخبّط في دعوته خبط الناقة العشواء في بيدائها، ورجلًا يعرف الحق ويدعو الأمّة إلى الباطل دعوة المجد المجتهد، وهو أخبث الأربعة وأكثرهم غائلة؛ لأنّه صاحب هوى يرى أنّه لا يبلغ غايته منه إلّا إذا أهلك الأمّة في سبيله، فليت شعري من أيّ واحد من هؤلاء الأربعة تستعيد الأمّة رشدها وهداها!؟

ما أشد بلاء هذه الأمة؛ فقد أصبح دعاتها في حاجة إلى دعاة، يعلّمونهم كيف يكون الصبر والاحتمال في سبيلها؛ فليت شعري متى يتعلمون، ثم يرشدون؟

الحياة الذاتية:

أكثر الناس يعيشون في نفوس الناس أكثر مما يعيشون في نفوس أنفسهم، أي أنّهم لا يتحركون ولا يسكنون، ولا يأخذون ولا يدعون إلّا لأنّ الناس هكذا يريدون.

حياة الإنسان في هذا العالم حياة ضمنية مدخلة في حياة الآخرين، فلو فتّش عنها لا يجد لها أثرًا إلّا في عيون الناظرين.

يخيّل إليّ أنّ الإنسان لو علم أنّه سيصبح في يوم من أيام حياته وحيدًا في هذا العالم؛ لآثر الموت على الحياة علّه يجد في عالم غير هذا العالم.

لا يحيا في هذا العالم حياة حقيقية، إلّا ذلك الشاذ الغريب في شؤونه وأطواره وآرائه وأعمال؛ الذي كثيرًا ما نسمّيه مجنونًا، فإن رضينا عنه بعض الرضا سمّيناه فيلسوفًا.

أية قيمة لحياة امرئ، لا عمل له فيها إلّا معالجة نفسه على الرضا بما يرضى به الناس، فيأكل ما لا يشتهي، ويصدف نفسه عما تشتهي، وينفق في دراسة ما يسمّونه علم السلوك –أي علم المداهنة والملق– زمنًا لو أنفق

عشر معشاره في دراسة علوم النابغة لكان نابغته المبرز فيه حرصًا على إرضاء الناس.

وما أعجبت برجل في حياتي إعجابي بأديب من أدباء هذه الأمّة يكتب الرسالة التي يريد كتابتها بينه وبين نفسه، ثم يدلي بها إلى صحيفة من الصحف أيّة كانت ثم يمضي لسبيله كأنّه ما صنع شيئًا؛ فلا يسير وراءها سير المتسمّع المتجسّس، بل كثيرًا ما رأيته يسمع حديث الناس عنه في حالي رضاهم وسخطهم ساكتًا هادئًا، كأنّما يتحدثون عن غيره، حتى كنت أتخيل أن لا فرق عنده بين: أحسنت وأجدت، وأسأت وأخطأت، بل قلّما رأيته على كثرة لصوقي به، يقرأ ما تكتب الصحف عنه، حتى كنت أحمل تلك الحال الغريبة من أمره على البله والغفلة، أو العظمة والكبرياء، لولا أنّي فاتحته مرة في ذلك وسألته: لمَ لا تحفل برأي الكتاب فيك، ولمَ لا تقرأ ما يكتبون عنك؟ فأجاب: إنّني ما أقدمت على الكتابة للناس في إصلاح شؤونهم، وتقويم معوجهم، إلّا بعد أن عرفت أنّي أستطيع أن أنزل منهم منزلة المعلم من المتعلم، للناس خاصة وعامة؛ لأنّي راضٍ عن طريقتي التي أكتب بها رسائلي، فلا أحب أن يشككني فيها مشكك، ولم يهبني الله من قوة الفراسة ما أستطيع أن أميز بين مخلصهم ومشوبهم، فأنا أسير بينهم مسير رجل بدأ يقطع مرحلة لا بد له أن يفرغ منها في ساعة محدودة، فأنا إنّما أكتب للناس لا لأعجبهم، بل لأنفعهم، ولا لأسمع منهم أنت أحسنت، بل لأجد في نفوسهم أثرًا مما كتبت، أتدري لم عجز كتاب هذه الأمة عن إصلاحها؟ لأنّهم يظنون أنّهم لايزالون حتى اليوم طلبة يتعلمون في مدارسهم وأنّهم جالسون بين يدي أساتذة اللغة يتلقون عنهم دروس البيان.

نعم قد يكون الولع برضاء الناس والخوف من سخطهم مذهبًا من مذاهب الخير، وطريقًا من طرق الهداية للضال عنها، لو أنّ الفضيلة هي الخلق المنتشر فيهم، لآثرت أن يعرض المرء نفسه على الفضيلة ذاتها من حيث هي، لا من حيث تشخيصها في أذهان الناس وقولهم، ثم لا يبالي بعد ذلك أرضوا عنه أم سخطوا عليه، فإنّما يبكي على الحب النساء.

العَبَرات:

كنت أغبط نفسي على التجلّد و الصبر، وأحسبني قادرًا على الاستمساك في كل رزء مهما جلّ شأنه وعظم وقته، فلمّا مات مصطفى كامل علمت أنّ من الرزايا ما لا يطاق احتماله ولا يستطاع تجرعه كل يوم نرى الموت ولا نزال نعدّ الموت غريبًا، هيهات لا غرابة في الموت ولكن الغريب موت الرجل الغريب.

أين قطرات الدموع التي يريح بها الباكون أنفسهم أو قطرات المداد التي يرصع بها الكتاب بياض صحائفهم من قطرات الحياة التي أراقها مصطفى كامل في سبيل وطنه وأمته. كان مصطفى كامل سراجًا كبير الشعلة وكل سراج تكبر شعلته يفرغ زيته وشيكًا وتحترق ذبالته فينطفئ نوره. كان له منافسون يرمونه بالخفة والطيش ويقولون له: إنّك مخطئ أو مضر أو غير محسن أو غير عظيم. فما كان يصدق من ذلك شيئًا كأنّما كان ينظر بعين الغيب على هذا اليوم الذي اتفق فيه أصدقاؤه وأعداؤه وخصومه وأولياؤه على أنّه رجل عظيم. ما كان مصطفى كامل من الأغنياء ولا من بيت الملك وما كان آمرًا ولا ناهيًا ولكنّه لقي من إجلال الناس لموته وإعظامهم لمصيبته. أيّها الراحل المودع، طبت حيًا وميتًا، خدمت أمّتك في حياتك وبعد مماتك ولولا حياتك ما نمَتْ العاطفة الوطنية في نفوس المصريين ولولا مماتك ما عرف العالم أجمع أنّ الأمة المصرية على اختلاف مشاربها ومذاهبها تجمعها كلمة واحدة هي حب الوطن وحب رجاله العاملين.

دمعة على الإسلام:

إنّكم تقولون في صباحكم ومسائكم وغدوكم ورواحكم كل خير في اتباع من سلف وكل شر في ابتداع من خلف، فهل تعلمون أنّ السلف الصالح كانوا يجصصون قبرًا أو يتوسلون بضريح؟ وهل تعلمون أنّ واحدًا منهم وقف عند قبر النبي -صلى الله عليه وسلم- أو قبر أحد من أصحابه وآل بيته يسأله قضاء حاجه أو تفريج هم، وهل تعلمون أنّ الرفاعي والدسوقي والجيلاني والبدوي أكرم عند الله وأعظم وسيلة إليه من الأنبياء والمرسلين والصحابة والتابعين؟ وهل تعلمون أنّ النبي -صلى الله عليه وسلم- حينما نهى عن إقامة الصور والتماثيل نهى عنها عبثًا ولعبًا! أم مخافة أن تعيد للمسلمين جاهليتهم الأولى؟ وأيّ فرق بين الصور والتماثيل وبين الأضرحة والقبور ما دام كل منها يجرّ إلى الشرك ويفسد عقيدة التوحيد؟ والله ما جهلتم شيئًا من هذا

ولكنكم آثرتم الحياة الدنيا على الآخرة؛ فعاقبكم الله على ذلك بسلب نعمتكم، وانتقاض أمركم، وسلّط عليكم أعداءكم يسلبون أوطانكم، ويستعبدون رقابكم، ويخرجون دياركم، والله شديد العقاب.

السياسية:

يقولون أنّ السياسة علمًا من العلوم التي يتلقاها الإنسان في مدرسة أو يدرسها في كتاب وإنّما هي مجموعة أفكار قانونها التجارب وقاعدتها العمل، أتدري لماذا؟ لأنّ العلماء أشرف من أن يدوّنوا المكايد في كتاب؛ ولأنّ المدارس أجلّ من أن تجمل بجانب دروس الأخلاق والآداب دروس الأكاذيب والأباطيل وإلّا فكل طائفة من المعلومات المتشابهة تدخل بطبيعتها تحت نظام عام يؤلفها ويجمع شتاتها ويسمى علمًا!

خداع العناوين:

لقد جهل الذين قالوا أنّ الكتاب يعرف بعنوانه فإنّي لم أرَ بين كتب التاريخ أكذب من كتاب (بائع الزهور) ولا أعذب من عنوانه ولا بين كتب الأدب أسخف من كتاب (جواهر الأدب) أطلب مطلبًا واحدًا لا أرى في عقول الناس وأفهامهم ما يحول بينهم وبين تصوره وإدراكه هو أن يهذّبوا قليلًا من هذه المصطلحات التي أنسوا بها والعناوين التي جمدوا عليها فلا يسمون المنافق تقيًّا ولا المتمجد ماجدًا ولا البخيل غنيًا ولا الفقير مجرمًا ولا المتوحش متماديًا حتى لا ينزع محسن عن إحسانه ولا يستمر مسيء عن إساءته.

الإغراق:

بين الإغراق في المدح والإغراق في الذم تموت الحقيقة موتًا لا حياة لها من بعده إلى يوم يبعثون. أيّها القوم، إن عجزتم عن أن تكونوا عادلين فكونوا راحمين، فارحموا أنفسكم واعفوها من الدخول في مآزق أنتم عاجزون عنها، وارحمونا؛ فقد ضاقت صدورنا بهذه المتناقضات وسئمت نفوسنا تلك المبالغات.

اللقيطة:

ويا أيّها الناس جميعًا، لا تحلفوا بعد اليوم بالأنساب والأحساب ولا تفرّقوا بين تربية الأكواخ وتربية القصور ولا تعتقدوا أنّ الفضيلة وقف على الأغنياء وحبائس على العظماء فقد علمتم ما أضمر الدهر في طيّات أحداثه من رذائل الشرفاء وفضائل اللقطاء.

الصندوق:

أيّها السائل، أراك تسألني عن القسمة الشرعية في هذا المال كأنّك تعتقد أنّه ميراث شرعي وأنّ لهؤلاء الذين تسميهم أصحاب الأنصبة من الحق في هذا المال مثل ما للوارثين في مال المورثين. ذلك ما أراه في هذه المسأله وهذا ما أعتقده فيها ولا أعلم إن كنت أرضيت الناس فيما كتبت أو أغضبت، وإنّما أعلم أنني أرضيت ضميري وخالقي وحسبي ذلك وكفى.

الغناء العربي:

الغناء بقية خواطر النفس التي عجز عن إبرازها اللسان فأبرزتها الألحان. والغناء فن من فنون الطبيعة، فلقد كان الشعر والغناء أخوين أليفين رضيعيّ ثدي وضجيعيّ مهد ثم ضربها الدهر بضرٍّ باته فافترقا، فماذا علينا لو قصرنا مسافة البعد بيتهما وماذا على المغنين والشعراء في مصر لو عقدوا بينهم عهدًا أن يهذبوا أخلاق أمّتهم ويرفعوا شأنها ليكون لهم من الفضل في نهضتها وارتقائها ما عجز عن دركه الفلاسفة والحكماء فينظّم الشاعر المقطعات الرقيقة العذبة السائغة في فضائل الأعمال ومكارم الأخلاق والترغيب؛ فيأخذها منه المغني ولا يتكلف في تلحينها أكثر ما يتكلفه في تلحين سواها من الأدوار والمواويل ثم يغنيها في الناس غير مبالٍ بما يفاجئة به ضعفاء النفوس الجامدون من الانتقاد الملازم لكن عمل شريف في مبدئي وفي اعتقادي أنّ لهذه الطريقة من الأثر الحسن في نفوس العامة وتهذيب أخلاقهم وطباعهم وتقويم ألسنتهم وعقولهم ما يخلد للملحنين والمغنين أجمل ذكر في تاريخ عظماء الرجال.

التوبة:

عِلِمَ فلان -وكان شابًّا من شبّان الخلاعة واللهو وقاضيًا من قضاة الحاكم- أنّ المنزل الذي يجاور منزله يشتمل على فتاة حسناء من ذوات الثراء والنعمة والرفاهية والرغد، فنظر إليها النظرة الأولى، فتعلقها فكررها أخرى فبلغت منه فتراسلا ثمّ تزاورا ثمّ افترقا وقد خُتمت روايتهما بما يختم به كل رواية غرامية يمثلها أبناء آدم وحواء على مسرح هذا الوجود.

الحسد:

لو عرف المحسود ما للحاسد عنده من يد وما أسدى إليه من نعمة لأنزَلَه من نفسه منزلة الأوفياء المخلصين، ولوقف بين يديه تلك الوقفة التي يقفها الشاكرون بين أيدي المحسنين. الحسد مرض من الأمراض القلبية الفاتكة ولكل داء دواء ودواء الحسد أن يسلك الحاسد سبيل المحسود ليبلغ مبلغه من تلك النعمه التي يحسده عليها.

الوفاء:

إنّي محدثّك عن صديق لي من كرام الناس وأوفيائهم، تزوّج امرأة حسناء فاغتبط بها برهة من الزمان ثم أصابها الدهر بمثل ما أصاب به زوجك ولم يترك لها من ذلك النور الذاهب إلّا كما تترك الشمس من الشفق الأحمر في حاشية الأفق فلم يقنعه من الوفاء لها أن استبقاها واستمسك بها، بل كان يحرص جهده على ألّا تعلم أنّه ينكر من أمرها شيئًا.

خبايا الزوايا:

ليست مسألة الزوايا وخباياها أمرًا يستهان به أو تفضي العيون عليه؛ فإنّنا نريد أن نعدُّ لوطننا رجالًا ذوي شجاعة وإقدام وعزّة وأنفة من الذين إذا عظم الخطب كانوا حماة الديار وإذا اشتدّ البأس لا يولّون الإدبار.

القمار:

لا أستطيع أن أعتقد ما يسمّونه الجنون الفرعي ويريدون منه أن يكون الإنسان مجنونًا في شأن واحد من شؤونه عاقلًا في باقيها وعندي أنّ الرجل إمّا أن يكون عاقلًا أو مجنونًا ولا ثالث لهما. العقل قوة يقتدر بها المرء على ضبط نفسه عن شهواتها فموقفه أمامها موقف واحد؛ فإمّا أن يغلبها جميعًا أو تغلبه جميعها.

الأوصياء:

مرضَ فلان مرض الموت فلم يحفل بالمنية؛ لأنّه اقتطف زهرة الحياة جميعها، ولأنّ الثمانين قد ألحّت عليه بصبحها ومسائها، وليلها ونهارها، فلم تترك له خيطًا من خيوط الأمل، ولا شعاعًا من أشعة الرجاء لولا أنّ بين يديه ولدًا صغيرًا في السابعة من عمره، قد ماتت أمّه منذ عهدٍ قريب، فنظر إليه، وأنشأ يقول: أي بني، من لي بقلبٍ يرعاك مثل قلبي، وعين تسهر مثل عيني، وروح ترفرف فوق رأسك مثل روحي، ونفس تضمّ جوانحها عليك مثل نفسي!؟

من لي بصديقٍ أثق بودّه وإخلاصه، فأكِل عليه أمرك وأعتمد عليه في تأديبك وتخريجك!؟

فما أتمّ نجاءه حتى دخل عليه صديقه الوحيد، وقد سمع آخر نجواه، فقال له: هوّن عليك يا مولاي، فأنا صديقك الذي تنشده، وأنا والد ولدك من بعدك، فاستنار قلب الرجل بنور الأمل.

اتّخذ الشيخ ذلك الرجل صديقًا له في الأعوام الأخيرة من أعوام حياته بعدما رآه يكثر الاختلاف إليه، ويطيل اللبث بجانبه، ذلك إلى ما كان يراه متجمّلًا به من صلاح مملوء بالركعات والسجدات، إلى أن أحسّ باقتراب الأجل، فأوصاه بما أوصى.

هذا هو تاريخ ذلك الصديق في حياة الشيخ، أمّ تاريخه بعد مماته فأسمعك منه ما تهوى له الأفلاك عجبًا!

لم تكن صلاته إلّا رياءً ونفاقًا. أمّا شأنه مع الولد، فقد علم أنّه سيبلغ عمّا قليل أشدّه، فقطعه عن المدرسة؛ لأنّه لا يحب أن ينشأ متعلّمًا.

ليت شعري، هل يعلم ذلك المقبور في لحده ما صنعت يد الحدثان بماله وولده، وأنّ المال قد ورثه غير وارثه، واستأثر به غير صاحبه؟

اللهم أعدني على هذا الكاذب الذي خذلني وخدعني، وخفر ذمتي وخاس بعهدي، وخان أمانتي وأفسد وصيتي، وخذ لولدي بحقه من هذا الظالم الذي سرق ماله وهتك عرضه وعذب نفسه ونقص عيشه فأنت أعدل الحاكمين وأرحم الراحمين.

العام الجديد:

في مثل هذا اليوم من كل عام يقف ركب العالم السائر بمنزلة من منازل الحياة فينزل عن مطاياه ليستريح فيها ساعة من وعثاء السفر بعد أن نال الأين والكلال وأضناه سري الليل وسير النهار ثلاثمائة وخمسة وستين يومًا. وما دامت هذه المطالب أحلامًا كاذبة وأماني باطلة فلا مطمع في سلام ولا أمان ولا أمل في سعادة ولا هناءة ولا فرق بين أمس الدهر ويومه ولا بين يومه وغده ولا فرق بين مغفلات أيامه غير ما عرفت وما ذاق أحد من نغماته غير ما ذقت وليفرح بالعام الجديد من حمد ما مضى من أيامه وسالف أعوامه.

سحر البيان:

رأيت في إحدى روايات شكسبير وهي الرواية المعروفة برواية "يوليوس قيصر" موقفًا لبطلين من أبطال الفصاحة وفارسين من فرسان البيان. أيّها الأصدقاء: إنّ بين جنّي قلبًا يخفق بحبكم والعطف عليكم والرأفة بكم ولولا مخافة أن تنفجر صدوركم حزنًا وجزعًا لقلت لكم أنّ قيصر قُتِل مظلومًا. إنّني أعتقد أنّ "بروتس" ورفاقه شرفاء عظماء لذلك أحبّ أن أسئ إلى نفسي وإلى قيصر وإليكم، وقبل أن أقول أنّهم أخطؤوا في قتل قيصر وهنا صمت أنطونيوس وأرسل من جفنيه بضع قطرات من الدموع.

الانقلاب:

وهكذا استطاع أنطونيوس في موقف واحد أن يستعبد الشعب الروماني لنفسه قبل أن يفيق من استعباد قيصر له كذلك الأمم الضعيفة الجاهلة لا مفر لها من إحدى العبوديتين إمّا العبودية لحملة التيجان أو لحملة البيان.

الكبرياء:

حدث أنّ صعلوكًا يعرفني، ويعرف مقامي، تمادى في وقاحته وسوء أدبه حتى وقف بجانبي في الصلاة فاشمأزت نفسي من هذا الأمر اشمئزازًا عظيمًا وحاولت أحتمله فلم أستطع، فخفت إن طردته أن يؤاخذني الناس به فهل تعرف مسوّغًا شرعيًا يفرّق بين درجات الناس في مواقف الصلوات؟ لا عذر لكم في الكبرياء في جميع حالاتكم وشؤونكم، فإن كنتم من أرباب الفضائل فحري بالفاضل ألّا يشوّه وجه فضيلته برذيلة الكبرياء، أو لا فما تحمل الأرض على ظهرها أسمح وجهًا ولا أصلب خدًّا من جهلة المتكبرين، فانظروا أين تنزلون، وفي أيّ مقام تقيمون؟

الانتحار:

قرأت في بعض الصحف أنّ رجلًا من تجار المسلمين انتحر لا لضيق يد أو شدة مرض أو بؤس حال بل لأنّه حزن على وفاة صديق له فقتل نفسه. إنّ الرجل المؤمن يعتقد ولا شك بسوء عاقبة المنتصر فكيف هان عليه، وهو في آخر يوم من أيام حياته أن يضمّ إلى خسارة دنياه خسارة آخرته وهي العزاء الباقي له عن كل ما لاقاه في حياته من شقاء وعناء!

إنّ الانتحار نزعة فاسدة وعادة مستهجنة رمتنا بها المدنية الغربيّة فيما رمتنا به من مفاسدها وآفاتها.

الحياة الشعرية:

لولا الحياة الشعرية التي يحياها الناس أحيانًا لسمج في نظرهم وجه الحياة الحسيّة ومرّ مذاقها في أفواههم حتى ما يغتبط حي بنعمة العيش ولا يكره ميت طلعة الموت. والحق أقول لولا الحياة الشعرية التي أحياها أحيانًا في هذه الكلمات التي أكتبها لا حببت زهدًا في هذه الحياة الحسية أن تطلع الشمس من مغربها إيذانًا بانقضاء العالم وفنائه ولتمنّيت حبًّا في الانتقال من حال إلى حال أن أنتقل ولو إلى رحمة الله.

رباعيات الخيّام:

وقفت برباعيات عمر الخيّام يومًا من الأيّام كما يقف مسافر ضلّ به سبيله في فلوات الأرض ومجاهلها بوادٍ معشب أريض في وسط فلاة جرداء عند متقطع العمران، حتى أصبحتُ أعتقد أنّ هذه النفس التي تشمل عليها بردة هذا الشاعر الجليل مرآة صافية قد تمثل فيها هذا الكون بأرضه وسمائه وليله ونهاره وناطقه وصامته وصادحه وباغمه، وأنّ فخّار الأعراب بمتنبّيها ومعرّيها، والفرنسية بلامرتينها وفكتورها، والسكسون بشكسبيرها وملتونها، والطليان بداتتها، والألمان بجيتها، والرومان بفرجيلها، واليونان بهوميرها، ومصر القديمة ببنتاؤورها، ومصر الحديثة بأحمدها لا يقل عن فخار فارس بخيّامها.

إلى تولستوي:

قف ساعة واحدة نودّعك فيها قبل أن ترحل لطيّتك وتتخذ السبيل إلى دار عزلتك فقد عشنا في كنفك على ما بيننا وبينك من بعد الدار وشطّ المزار عهدًا طويلًا كنّا فيه أصدقاءك وإن لم نرَك، وأبناءك وإن كان لنا آباء من دونك، وعزيز علينا أن تفارقنا قبل أن تقضي حق عشرتك بدمعة نذرفها بين يديك في موقف الوداع.

وارحمتاه!

أيّها المسلمون، إنّكم إن اجتمعتم اليوم لن تفترقوا غدًا وإن هديتم لرشدكم في موقفكم هذا لن تضلّوا من بعده أبدًا وإنّكم إن قدّمتم بين أيديكم هذا العمل الصالح أحسن الله جزاءكم وأعانكم على أمركم ووفّى لكم بما وعدكم من نصره ومعونته ((إن تنصروا الله ينصركم ويثبّت أقدامكم))

خطبة الحرب:

يا أبطال برقة وليوث طرابلس وحماة الثغور وذادة المعاقل والحصون، صبرًا قليلًا في مجال الموت فها هي نجمة النصر تلمع في آفاق السماء، فاستنيروا بنورها واهتدوا بهديها حتى يفتح الله عليكم.

الإنسانية العامّة:

مدافعًا لا مهاجمًا وليقاتله مؤدبًا لا منتقمًا وليكن موقفه أمامه في جميع ذلك موقف العادل المنصف والشفيق الرحيم فيدفنه قتيلًا ويعالجه جريحًا ويكرمه أسيرًا ويخلفه على أهله وولده بأفضل ما يخلف الرجل الكريم أخاه الشقيق على ولده من بعده وليكن شأنه معه شأن تلك الفئة المتحاربة التي وصفها الشاعر في قوله: إذا احتربت يومًا ففاضت دماؤها تذكّرتُ القربى ففاضت دموعها.

أدوار الشعر العربي:

وعلى هذا المورد الوبيل وقف الشعر الوبيل، وقف الشعر العربي بضعة قرون وقفة لا يتزحزح عنها ولا يتحلحل حتى أنزل الله إليه من ملائكة البيان رسلًا في هذا العهد الأخير، أخذوا بيده ونشروه من قبره ونفضوا عنه غباره فأصبحنا نرى في أبراد الكثير منهم أجسام امرئ القيس والنابغة ومسلم وأبي نواس وأبي عبادة والشريف ومهيار، لا فرق بينهم وبينهم سوى أنّ هؤلاء مقلّدون يتبعون الآثار وأولئك مستدعون يفترعون البكاء.

حوانيت الأعراض:

أنا لا أستطيع أن أتصورّ الفرق بين رجل يمد يده إلى خزانة بيتي فيسرق مالي، وبين آخر يمد لسانه أو قلمه إلى شرفي فيستلبه كلاهما مجرم فاتك ولص مغتال، وفي عرف الناس أكبرهما إثمًا، وأسوأهما أثرًا.

المال خادم من خدّام الشرف، وحاجب من حجابه والوقوف على بابه، ولولا مكان الشرف، والكلف بصيانته، ما كان لامرئ في هذا المعدن الصامت أرب أكثر من أن يقيم به صلبه ويمسك به حوباءه.

يحب الرجل المجد حبًّا يملأ ما بين جوانحه، ويكلف به حتى يصبح آثر عنده من نفسه التي بين جنبيه ويقضي لكلفه به وحرصه عليه سواد ليله يساهر الكوكب حتى ينحدر إلى مغربه وبياض نهاره يساير الشمس حتى تغرب في حمأتها، ويقيم بينه وبين شهوات نفسه ونزعات قلبه حربًا عوانًا يحمل في سبيلها ما لا يستطيع أن يحمله بشر.

إنّ بين جدران بعض تلك القاعات التي يسمونها (إدارات) قومًا مفاليك قد دارت عليهم الأيّام دورتها، وسلبتهم المواهب التي يعيش بها أمثالهم ممن ولد مولدهم ونشأ منشأهم فضاقت بهم سبل العيش التي ما كانت تضيق لو أنّ الله أبقى لهم بعد أن سلبهم فضيلة الفهم والعلم فضيلة العمل الصالح والسيرة المستقيمة ولقد يكون خطبهم سهلًا ومصابهم محتملًا، لو أنهم صرّحوا عن أنفسهم وأبدوا للناس صفحات وجوههم، وطلبوا قوتهم من طريق الكدية الواضحة البنية، ولكنهم مرّاؤون مخادعون، يشتمون باسم الموعظة ويقرضون الأعراض باسم النصيحة ويتّهمون الأبرياء باسم الغيرة الدينية أو الأدبيّة، ووالله ما بهم من أدب ولا دين، ولكنّهم قومًا محددون، قد بلغت الفلاكة منهم مبلغًا وضاقت بهم الأرض، فهم يروّحون عن نفوسهم بالنيل من شرف الشرفاء، وعندي أن لو جمعت عيوب الناس جميعهم في كفة ووضعت في الكفة الأخرى عيوبهم الجامعة للسفاهة؛ لثقلت كفتهم أمام كفة عيوب الناس.

الرثاء:

لا أنسى رجلًا كان خير من لقيت من الرجال، وكان يعجبني منه أدبه وفضله، وعفّته، وأنّه كان صبورًا محتملًا تقرع الخطوب صفاة قلبه فترتد عنها ثانية، كما ترتد الكرة عن الحائط إذا قرعتها.

كان فقيرًا لا يملك من الدنيا أكثر مما يقيم صلبه ويمسك حوباءه ويستر سوأته، فزوّجه أبوه بابنة عمّ له لم يكن مثلها في دمامتها، وسوء خلقها، ممن يطمع مثله في جمال خلقه، تزوجها وفي نفسه من المضض والألم، وأذكر أنّ على طول عشرتي له، ما سمعته يشكو إليّ يومًا من الأيّام ما كان يعالجه من سوء عشرتها، ويكابده من شرورها التي لا تغبه ليلها ونهارها ثقة بالله ورحمته، وإيثار لفضيلة الصبر والجَلَد، وسكونًا إلى ما جرَت به الأقلام في ألواح المقادير وكان كل ما ينعم به من لذائذ هذه الحياة؛ أنّه كان يسافر في كل شهر مرة أو مرتين إلى أحد أصدقائه في الريف فيعود وفي ثغره ابتسامة تتلألأ تلألؤ نجمة الصبح قبل انحدارها إلى مغربها ثم لا تلبث أن تتلاشى.

زرته في منزله ذات يوم فرأيته جاثمًا في مقعده، قال لي: تعتقد أنّ الله موجود؟ قلت: نعم! قال: وتعتقد أنّه عادل؟ قلت: نعم، قال: وراحم؟ قلت: نعم، فبسط يده إليّ فعل للضارع المستصرخ وقال:

هل لك أن تحدثني أيّها الصديق عن نزول الصواعق، وانتشار الأوباء، ووثلك العيون التي لا تزال منهلة بالبكاء، هل تعتقد أن ذلك كلّه عدل من الله ورحمة؟ قلت: نعم، إنّ الله يمتحن عباده ليعلم الذين صبروا فيدخر لهم في دار نعيمه من المثوبة والأجر أضعاف، ولو أنّني ملكت في هذه اللحظه الدنيا بحذافيرها لوهبتها لمن يكشف لي سرّ صديقي.

الشعر:

كتب إليّ كاتب يقول: عرفناك قبل اليوم شاعرًا ما تكاد تكتب سطرًا، ثمّ رأيناك بعد ذلك كاتبًا ما تكاد تنظم بيتًا، فلمَ لم تكتب في عهدك الأول، ولمَ لم تنظم في عهدك الثاني؟ كأنما ظن أنني أكتب اليوم بقلم غير قلم الأمس، أو أهيم في وادٍ غير ذلك الوادي! وهل الشعر إلّا نثارة من الدرّ ينظمها الشاعر إن شاء شعرًا، وينثرها الكاتب إن شاء نثرًا.

ما كان الرجل العربي في مبدأ عهده ينظم الشعر... ولا يعرف ما قوافيه، وأعاريضه، ولكنّه سمع أصوات النواعير وحفيف الأوراق وخرير المياه؛ فلذّ له صوت تلك الطبيعة المترنّمة، ولذّ له أن يبكيَ لبكائها وينشجج لنشيجها، وأن يكون صداها الحاكي لرنّاتها ونغماتها، فإذا هو ينظم الشعر من حيث لا يفهم من شؤونه سوى أنّه تلك النغمة الموسيقية العذبة الخالبة، ولا من أبحره وضروبه سوى أنّها صورة من صوره، ولون من ألوانه.

وذلك منتهى نظر العربي إلى الشعر، وذلك ما دعاه إلى أن يسمّى النبي الذي بعثه الله إليه شاعرًا، وهو يعلم أنّه ما قصد في حياته قصيدة ولا رجز أرجوزة، ولكنّه سمع كتاب الله وآياته المفصلات، أبلغ الكلام وأفصحه وأعلقه بالنفوس، وأمثال تيك مما لا ينطق به الناطق في أكثر مناحيه ومنازعه، إلّا عند ذهابه مذهب الخيال الشعري، فشبه له فسمّى ما سمعه شعرًا والناطق شاعرًا، وماهو بشاعر ولا ساحر.

وما كلّ موزون شعرًا، وكل ناظم شاعرًا؛ فالوزن ملكة تعلق بالنفس من طول ترديد النظوم والتغني به مقطّعًا تقطيعًا يوازن تفاعليه... فهو نغمة موسيقية ولحن خاص من ألحان الغناء

لا مؤثر في نفي الإنسان مثل الشعر، وما خضع الإنسان لشيء في جميع أدوار حياته إلّا للشعر، وللشعر الفضل الأوّل في نبوغ الإنسان وارتقائه وبلوغه هذا المبلغ الباهر من التفوق والكمال؛ فالشعر سر هذه الحياة ولا يطيب لنا العيش إلّا بجواره فلنمجد الشعر، والشعراء، فهم مشارق شموس الحكمة.

الشهيدتان:

لم تغتمض عيناي ليلة أمس؛ لأنّني بتّ أسمع في الدار الملاصقة لبيتي أنين امرأه متوجعة، تعالج همًّا ثقيلًا، وتشكو مرضًا أليمًا، ويخيل إليّ أنّي لا أسمع بجانبها معللًا يعللها، ولا جليسًا يتوجّه لها! فذهبت إليها، فإذا قاعة صغيرة مظلمة لا تشمل على أكثر من سرير بالٍ يتراءى فوقه شبح مائل من أشباح الموتى، فترفقت في مشيتي حتى دنوت منها، فحرّكتْ شفتيها تطلب الماء، فوقفتُ بجانبها أسألها عن خطبها، فقالت لي: زوّجني أبي منذ سنوات من رجل مزواج مطلاق، لا يكاد يصبر على امرأة واحدة عامًا واحدًا، ولو كان للفتاة رأي في نفسها من دون رأي أوليائها لعرفت كيف أحسنُ الاختيار لنفسي، بل لو لم يكن في الأمر إلّا أتبتل كما تتبتل الراهبات، أو أتزوّج زواجًا ينتهي بي إلى هذا المصير، وحملت إليه فاستقبلني بأحسن ما يستقبل به الزوج الكريم أحظى نسائه لديه، وأكرمهن عليه، وكنت أنتظر يوم الفراق كما ينتظر المجرم يوم القصاص، فما أفقت من صرعة النفاس حتى علمت أنّه خطب فتزوج فبنى، وأنّني أصبحتُ في المنزل وحيدة منقطعة لا مؤنس لي إلّا طفلتي الصغيرة فجزعت عند الصدمة الأولى، واحتملت طفلتي إلى بيت أبي فوجدته مريضًا، فبكى رحمةً بي واستغفرني من ذنبه إليّ فغفرته له، وماهي إلّا أيّام قلائل حتى مضى لسبيله مفجوعًا برزئي الذي نزل بي، فعلمت أنّ الدهر قد سجّل عليّ في جريدة الشقاء أيّامًا طوالًا، لا أعلم متى يكون انقضاؤها، ولا أدري ما الله صانع فيها!

الدعاء:

خلاصة قصيدة لفكتور هيجو:

قومي يا بنيّة إلى الصلاة، فقد نزل ستار الليل، ودبّ الشفق الأحمر في حاشية الأفق، وأطلّت عيون الكواكب من فروج السحب، وأجرى البدر المنير ليقته الفضيّة البيضاء على صفحة النهر، ومسحت أيدي النسائم المبتلة بندى الليل عن أوراق الأشجار، غبار النهار.

اطلبي الرحمة للآباء العائدين إلى منازلهم تحت جنح الظلام بدموع منهلة، وقلوب واجمة، بعد أن سايروا الشمس من مشرقها إلى مغربها فلم يجدوا ما يمسحون به دموع أبنائهم الذين ينتظرونهم في منازلهم.

اطلبي الرحمة للأمهات الجالسات حول أسرة أبنائهن المرضى وقد رجفت قلوبهن، وحارت أبصارهن من مخافة أن يذقن مرارة الثكل، والثكل كثير على قلوب الأمّهات.

اطلبي الرحمة للبخيل الذي يجيع بطنه ويشبع صندوقه، والأحمق الذي يبتسم للَمَعان الحرير في صدره، والذهب في أصابعه، والملك الذي يشعل نار الحرب في أمّته؛ ليطفئ نار غضبه ، والزوج الذي يحاسب نفسه على ليلة سوء يقضيها خارج بيته، ويحاسب زوجته على ابتسامة تبسمها لرجل غيره، وسائر البائسين الذين لا يشعرون ببؤسهم، والأشقياء الذين يظنون أنّهم سعداء.

اطلبي الرحمة للأبرار والفجار، والعصاة والطائعين، والملحدين والمؤمنين، وكل دارجة في الأرض، وكلّ سابحة في السماء، ولاتيأسي أن يستجيب الله دعاءك. فلكل بداية نهاية، ولكلّ سائلة قرار، كما أنّ النهر يصب في البحر، والطائر يقع على الغصن، والشمس تجري لمستقرها، والنفس تصعد إلى عالِمها، كذلك أبواب السماء، مفتّحة لخالص الدعاء.

الكوخ والقصر:

أنا إن كنت حاسدًا أحدًا على نعمة، فإنّي أحسد صاحب الكوخ على كوخه قبل أن أحسد صاحب القصر على قصره، لو أن للأوهام سلطانًا على النفوس لما تضاءلت الفقراء بين أيدي الأغنياء، ولا ورم أنف الأغنياء أن يتخذهم الفقراء أربابًا من دون الله.

أنا لا أغبط الغني إلّا في موطن واحد من مواطنه، إن رأيته يشبع الجائع ويواسي الفقير، ويعود بالفضل من ماله على اليتيم الذي سلبه الدهر أباه، والأرملة التي فجعها القدر في عائلها، ويمسح بيده دمعة البائس والمحزون، وأرثي له وأبكي على عقله إن مشى الخيلاء، وطاول بعنقه السماء.

أمّا الفقير فهو أسعد الناس عيشًا، وأروحهم بالًا، إلّا إذا كان جاهلًا مخدوعًا يظنّ أنّ الغني أسعد منه حظًّا، وأرغد عيشًا، وأثلج صدرًا فيحسده على النعمة التي أسبغها الله عليه، ويجلس في كسر بيته جلسة الكئيب المحزون يصعد الزفرة فالزفرة، ويرسل العَبرة فالعَبرة، ولولا جهله وبلاهة عقله لعلم أن رُبّ صاحب قصر يتمنى كوخ الفقير وعيشه، ويرى أنّ ذلك السراج الضعيف الذي لا يكاد ينير نفسه أسطع ذبالًا وأكثر لألاء من تلك الشموع الباهرات التي تتألق بين يديه، وأنّ تلك الحشية من الشعر أو الوبر أنعم ملمسًا وألين مضجعًا من وسائد الحرير ونضائد الديباج.

لقد بلغ الضعف وصغر النفس بكثير من الناس أنّهم يحفلون بالأغنياء لأنّهم أغنياء، وإن كانوا لا ينالون منهم ما يبل غلة أو يسيغ غصّة، ولو عامل الفقراء بخلاء الأغنياء بما يجب أن يعاملوا به لوجدوا أنفسهم في وحشة من أنفسهم، ولشعروا أنّ بدرات الذهب التي يكنزونها إنّما هي أساور ملتفّة على أقدامهم، وأغلال آخذة بأعناقهم، ولعلموا أنّ الشرف في كمال الأدب، لا في رنين الذهب، وفي جلائل الأعمال، لا في أحمال المال.

فليعظّم الناس الكرماء، وليحتقروا الأغنياء، وليعلموا أنّ الشرف شيء وراء الغنى والفقر، وأنّ السعادة أمر وراء الكوخ والقصر.

على سرير الموت:

مررت يومًا من الأيّام على باب منزل صغير في أحد الأزقة الضيّقة، فرأيت حوله مجمعً حافلًا، وتمتزج فيه الأنفاس بالأنفاس، وقد تخلله رجال من الشرطة وسمعت قائلًا يقول: (قبّح الله الانتحار) فعلمت أنّ هناك شابًا منتحرًا، وأنّ هذا الحادث سبب هذا الاجتماع.

فحاولت الدخول إلى المنزل فما استطعت إلى ذلك سبيلًا، حتى لمحت رجلًا من رجال الشرطة أعرفه فدخلت معه، رأيت على سرير الموت فتى في نحو العشرين من عمره، رقيق الجسم أصفر اللون، لم تستطع يد الموت أن تمحوَ كل آثار جماله، اهتم الضابط بملابسه لعلّه يجد فيها ما يدل عليه، واهتم الطبيب بجثته ليعرف علّة موته، أمّا انا فجلست بجانبه جلسة الكئيب المحزون أفكّر في مصيبته، فلمحت حول سريره أوراقًا منثورة، فجمعتها ووضعتها في محفظتي من حيث لا يشعر الضابط ولا الطبيب بما أفعل، علّني أجد فيها عِبرة من العِبر.

وما هي إلّا ساعة، حتى قرّر الطبيب أنّه منتحر بشرب الزرنيخ وقرّر الضابط نقل جثته إلى المستشفى، فنقلت الجثة، وانفضّ الجمع المزدحم، ثمّ لم أعد أعلم بعد ذلك من أمره شيئًا.

خلوت بنفسي والأوراق فنثرتها فرأيتها مجموعة خواطر عاشق تناول كأس الحب بيده، فارتشف منها الرشفة الأولى فوجدها حلوة المذاق، فألصق الكأس بفمه، واستمرّ يشرب لا يرفعها، ولايشعر بالمرارة المتجددة في جرعتها حتى أتى على الجرعة الأخيرة، فإذا هي السمّ الناقع الذي قلّه ذهب بحايته.

قرأت تلك المذكرات فبكيت بكاء رحمت نفسي منه، ثم طويتها وألقيت بها بين أوراقي، وظلّت على ذلك أعوامًا طوالًا.

الخطبة الصامتة:

لمّا بلغ أمير المؤمنين عبد الله بن الزبير نعي أخيه مصعب بن الزبير أمير العراق صعد المنبر فجلس عليه، ثم سكت، فجعل لون وجهه يتغيّر من الأحمر إلى الأصفر، فتساءل الناس عن سكوته وهو الخطيب اللبيب، وكان عذرهم له أنّه يريد أن يذكر مقتل سيّد العرب فيشتد عليه ذلك، وهو غير ملوم إن جزع.

ووقف سعد زغلول يوم حفلة تأبين أخيه فتحي باشا زغلول وأراد أن يقول كلمة قصيرة يشكر فيها القائمين بتلك الحفلة، فاختنق صوته بالبكاء وارتج عليه، وهو الجَلَد الصبور، والخطيب المفوّه الذي ما رتج عليه مرة في أصعب المواقف وأحرجها فما أشبه هذا البطل الباكي بهذا البطل الجازع.

وكذلك عظماء الرجال يضنون بدموعهم على نكبات الدهر أنفة وإباء، حتى إذا نزلت بهم كارثة من الكوارث التي لا أمر فيها إلّا الله وحده لا يستحيون أن يقفوا بين يديه باذلين من شؤونهم ما كانوا يضنون به من قبل.

على أنّ البكاء الذي حال بين سعد باشا وبين كلمته التي أرادها لم يحل بينه وبين أن يكون أفصح القائلين في ذلك الموقف وأنطقهم فقد خطب الخطباء وأنشد الشعراء من قبله ساعتين، وكان السامعون يتهامسون فيما بينهم إعجابًا بهم، حتى وقف هو وأرسل من جفنيه تلك الدمعة الحارة فبكى الناس جميعًا لبكائه كبارًا وصغارًا، شيوخًا وشبّانًا، وكان مشهداً مؤثرًا لم نرَ مثله في حفلة تأبين قبل ذلك، فكان لتلك الخطبة القصيرة الصامتة المتفجرة من قلب مصدوع مكلوم الأثر في النفوس ما لم يكن لتلك الخطب الناطقة الطوال.

ليس الذي يبكي صديقًا كان يأنس بحديثه، أو عالمًا كان ينتفع بعلمه، أو كريمًا يستظل بظلال مروءته وكرمه، كمثل الذي يبكي شظية قد طارت من شظايا قلبه.

اللفظ والمعنى:

لم أرَ فيما رأيت من الآراء في قديم الأدب وحديثه أغرب من رأى أولئك الذين يفرقون في أحكامهم بين اللفظ والمعنى، ويصفون كلًا منهما بصفة تختلف عن صفة الآخر، فيقولون: ما أجمل أسلوب هذه القصيدة لولا أنّ معانيها ساقطة مرذوله!

كأنّما يخيل إليهم أنّ اللفظ وعاء، وأنّ المعنى سائل من السوائل يملأ ذلك الوعاء، فتارة يكون خمرًا، وتارة يكون خلًّا، والوعاء باقٍ على صورته لا يتغير، وما علموا أنّهما متحدان ممتزجان امتزاج الشمس بشعاعها، والخمر بنشوتها، فكما لا يجوز أن نقول ما أجمل الشمس وأقبح شعاعها كذلك لا يجوز أن نصف اللفظ بالجمال، والمعنى بالقبح أو نعكس ذلك، فليعلم الناشئ المتأدب أنّه ليس اللفظ كيان مستقل، ولا حيز خاص، فجماله وقبحه جمال وقبح معناه، وأنّ القطع الأدبية الشعرية أو النثرية التي تصف أسلوبها بالجمال إنّما نصف بذلك معانيها وأغراضها، وأنّ الذين

يزعمون من الشعراء أو الكتاب أنّ أساليبهم الغامضة الركيكة المضطربة تشتمل على معانٍ شريفة عالية كاذبون في زعمهم، فاضطراب اللفظ وغموضه لاضطراب معناه وغموضه في نفوسهم، ومحال أن يعجز الفاهم عن الإفهام، ولا المتأثّر عن التأثير، ولا المقتنع عن الإقناع، وما لبيان إلّا المرآة التي ترتسم فيها صورة عن النفس، فحيث تكون جميلة فهو جميل، أو قبيحة فهو قبيح، فإذا استطعنا أن تتصور مرآة تكذب في تمثيل الصورة الماثلة أمامها، استطعنا أن نتصور بيانًا يختلف في وصفه عن وصف صاحبه.

يقول القائلون بمذهب التفريق بين اللفظ والمعنى عن مثل هذه القطعة:

ولما قضينا من منى كل حاجة ومسح بالأركان من هو ماسح

وشدت على حدب المهارى رحالنا ولم يعلم الغادي الذي هو رائح

أخذنا بأطراف الأحاديث بيننا وسالت بأعناق المطي الأباطح

إنّها جميلة الأسلوب، ولكنّها تافهة المعنى لا تشتمل على أكثر من الوصف والتصوير، كأنّهم لا يعلمون أنّ التصوير نفسه أجمل المعاني وأبدعها، بل هو رأس المعاني وسيّدها، والغاية الأخيرة منها، وقد رسم الشاعر في كلمته هذه صورة واضحة ناطقة للحجيج في حلّهم ومرتحلهم يسمعها السامع بأذنيه وكأنّه يراها بعينيه، فقد أتى بأجمل المعاني في أجمل الأساليب.

وإن وصفًا قصيرًا لحركة صغيرة من حركات النفس كقول الشريف:

وتلفت عيني فمذ خفيت عنّي الطلول تلفت القلب

لخير من ألف قصيدة طويلة مملوءة بالمعاني الغريبة، والخواطر المبتكرة لا تمثل الحقيقة، ولا تلتئم مع النفس ومزاجها، كقصيدة المتنبي التي مطلعها: ((أيطمع في الخيمة العذل))

ويقولون أيضًا عن هذا البيت:

أنّى يكون أبا البرية آدم وأبوك والثقلان أنت محمد

إنّه قبيح اللفظ ولكنه جميل المعنى، وهم واهمون فيما يقولون، فإنّ ذلك المعنى الجميل الذي يتوهمونه ليس معنى هذا البيت بل المعنى خطر على أذهانهم وانبعث في أفئدتهم عند سماع بيت مستغلق، أو كلمة غامضة فهي بأن تكون معاني السامعين، أولى من أن تكون معاني القائلين.

إذا سمعت بيتًا من الشعر فأطربك، أو أحزنك، أو أقنعك، أو أرضاك، هجاك وأنتَ ثائر، أو ترك أيّ أثر من الآثار في نفسك، كما تترك النغمة الموسيقية في نفس سامعها، فاعلم أنّه من بيوت المعاني، وإنّ هذا الذي تركه في نفسك الأثر وإنّما هو روحه ومعناه، وإن مررت ببيت آخر فاستغلق عليك فهمه، وثقل عليك ظلّه، وشعرت بجمود نفسك أمامه، فاعلم أنّه لا معنى له، ولا حياة فيها، وإن حاول صاحبه إقناعك بعكس ما فهمت منه.

اجعل شعور نفسك هو الميزان الذي تزن به ما تسمع، فكأنما أنك لا تعتمد على تعريف من تعريفات الجمال، ولا تلجأ إلى قانون من قوانينه عند وقوع نظرك على وجه مرآة لمعرفة درجتها من الحسن، كذلك لا تعتمد في استحسان ما تستحسن من الكلام، واستهجان ما تستهجن منه، إلا على شعور نفسك وإلهام حسك.

الشعر نغمة موسيقية قبل كل شيء، ثمّ يأتي بعد ذلك جمال الوصف وحسن التصوير، وتمثيل الحقيقة، على أن تكون تلك النغمة الموسيقية أساسها والروح السارية فيها، ليتحقق الفرق بين الشعر والفلسفة، فالفلسفة غذاء العقل برزانتها وهدوئها، وحجبها وبراهينها، والشعر غذاء النفس برنانة ونغماته، وأهازيجه ونبراته.

نظم الشعراء الشعر من عهد الجاهلية الأولى إلى اليوم فمات جميع من نظموا ولم يبقَ منه إلّا البيت الموسيقي الرنّان الذي لو لم يغنّه مغنيه لغنى وحده، وسيموت

شعر جميع الشعراء في هذا العصر ولا يبقى منه في المستقبل إلا كما بقي من الماضي في الحاضر.

الآداب العامة:

يتحدث كثير من الناس عن فئة من الشبان المصريين المتعلمين قد ظهروا في هذه الأيام واتخذوا لأنفسهم في حياتهم العامة طريقًا غير الطريقة اللائقة بهم وبكرامتهم وبمنزلة العلم الذي يزاولونه، فأصبحوا متبذلين في شهواتهم مستهترين في ميولهم وأهوائهم، ينتهكون حرمات الأعراض ما شاؤوا وشاءت لهم نزعاتهم، ويعبثون بها في كلّ مكان، وأهول ما يتحدثون به عنهم في هذا الشأن أنهم يغرّون الطالبات الصغيرات اللواتي لا يزلن يختلفن إلى مدارسهن، أو اللواتي انقطعن عنها منذ عهد قريب إلى منازلهن، وينصبون لهن صنوف الحبائل وأنواع الاشراك لاصطيادهن وإسقاطهن في هوة الإثم والعار، وهذا ما أريد أن أتكلّم عنه قليلًا!

أصحيح ما يقولون عنكم أيها الفتيان التعسون أنكم تتخذون صلة العلم التي هي أشرف الصلات وأكرمها صلةَ فساد بينكم وبين أولئك الفتيات الضعيفات وأنّ الحبالة التي تنصبونها لهن لاصطيادهن إنّما هي حبالة القلم الذي هو أفضل أداة للخير، وأعظم وسيلة للفضيلة، وخير واسطة للأدب والكمال!؟

أصحيح ما يقولون عنكم أنكم تكتبون إليهن ليكتبن إليكم، وتهدون إليهم صوركم ليهدين إليكم مثلها، فإذا امتلأت حقائبكم وجيوبكم بصورهن ورسائلهن أخذتم تنشرونها في كل مكان، وتعرضونها في كل معرض، وأخذ بعضكم يفاخر بكثرة ما يملك منها أو بجماله ورونقه، كما يفخر المرء بأفضل المزايا وأشرف الخصال؟

وتقفون لهن بكل طريق، وتأخذون عليهن كل سبيل، وتضايقوهن في مغداهن ومراحهن، وحيث ذهبن إلى عمل، أو خرجن لزيارة، أو يزرن في مجتمع، فإذا عجزتم عنهن في الطريق أرسلتم وراءهن الرسل في منازلهن يخادعنهن ويخاتلنهن، وربما توسلتم إليهن بأخواتكم وبنات أعمامكم ليسفرن بينكم وبينهن ويداخلنهن مداخلة الأصدقاء حتى يجتذبنهن إلى منازلكم؟ ولا تقنعون في أمر أولئك الفتيات البائسات اللواتي يقعن في مخالبكم بإفساد أخلاقهن حتى تسجّلوا عليهن ذلك الفساد تسجيلًا موقّعًا عليه بتوقيعاتهن، مستشهدًا عليهن بصورهن وخطوطهن؛ لتملكوا عليهن أمرهن بعد ذلك، وتحولوا بينهن وبين التفلت من أيديكم، والحياة بعيدًا عنكم، عذارى ومتزوجات؟

بل ولا تكتفون بإفساد نفوسهن وضمائرهن، حتى تفسدوا عليهن عقولهن وصحتهن، فتشركوهن معكم في شرب الخمر وتناول المخدرات بأنواعها، فلا تلبث أن تنتهيَ حياتهن بما تنتهي به حياة النساء الساقطات اللواتي يلفظن أنفاسهن الأخيرة في أقبية الحانات أو بين جدران المواخير.

أصحيح أنّكم فقدتم في تلك السبيل التي تسلكونها خلق الرجولة والشهامة فأصبحتم تتجملون بأخلاق النساء، وتزدلفون إليهن بمثل صفاتهن وشمائلهن، وأصبح الرجل منكم لا همّ له في حياته إلّا ذلك حتى سرى التأنيث من أجسامكم إلى نفوسكم فلم يبقَ من صفات الرجولة وأخلاقها غير الأسماء والألقاب؟

إنّ هذه الفتاة التي تحتقرونها اليوم وتزدرونها، وتعبثون ما شئتم بنفسها وضميرها إنما هي في الغد أمّ أولادكم، وعماد منازلكم، ومستودع أعراضكم ومروءتكم، فانظروا كيف يكون شأنكم معها غدًا، وكيف يكون مستقبل أولادكم وأنفسكم على يدها.

لا تتكون أخلاق الفتاة في عهد طفولتها أو في عهد شيخوختها، بل في عهد شبابها، فاذا سلم لها ذلك العهد فقد سلم لها كل عهد بعد ذلك، فدعوها تجتز هذه المرحلة الوحيدة من مراحل حياتها شريفة طاهرة، تجدوا فيها بعد قليل من الزمن خير زوجة للزوج، وخير أم للولد، وخير سيدة للمنزل.

لا تعجلوا عليها وانتظروا بها قليلًا لتستطيعوا أن تجدوها غدًا زوجة شريفة طاهرة شريفة في منازلكم، بدلًا من أن تجدوها فتاة ساقطة مزدراة مطرحة على أعتاب المواخير والحانات.

لا تزعموا بعد اليوم أنّكم عاجزون عن العثور بزوجات صالحات شريفات يحفظن لكم أعراضكم، ويحرسن سعادتكم فتلك جناية أنفسكم عليكم، وثمرة ما غرست أيديكم، ولو أنكم حفظتم لهن ماضيهن لحفظهن لكم حاضركم ومستقبلكم، ولكنكم أفسدتموهن، وقتلتم نفوسهن عند حاجتكم إليهن.

إنني لا أفزع في أمركم إلى القانون، فالقانون في هذا البلد مدني لا أدبي، ولا إلى الحكومة، فالحكومة مشغولة بشأن نفسها عن شأن غيرها، ولا إلى الدين فقد ضعف شأنه في نفوسكم حتى هان أمره عليكم، ولا إلى آبائكم وأولياء أموركم، فقد عجزوا عنكم، وأصبحوا يبكون مع الباكين عليكم، بل أفزع في أمركم إلى ضمائركم التي هي الأمل الباقي لنا بعد فقد جميع آمالنا فيكم، فاصغوا إلى صوتها ساعة تسمعوا منها هذا الرجاء الذي نرفعه إليكم، وصوت الضمير أقوى من كل صوت في العالم.

وحدّثني من أثق به أن كثيرًا من الفتيات الفاسدات لا يتزوجن إلا بعد أن يأخذن على أنفسهن عهدًا أمام أخلائهن أن يكن لهم بعد الزواج، أي بعد أن يصبحن مطلقات من قيود العذرة وروابطها، وقلما تتزوج فتاة ذات صلات فاسدة من رجل إلا وردت عليه ليلة البناء بها أو في صبيحتها كتب الوشاية بها من الأشخاص الذين اتصلت بهم، وأخلصت إليهن، فانتهى أمرها في حياتها الجديدة بالشقاء والعار، ولا أعرف فتاة في هذا البلد بدأت حياتها بغرام فقط فاستطاعت أن تتمتع بعده بحب شريف.

نحن في حاجة إلى أن نعلّم بناتنا؛ لأننا لا نريد أن يعشن جاهلات متأخرات، فتنحوا عن طريقهن أيها الغواة المفسدون ليستطعن أن يختلفن إلى مدارسهن آمنات مطمئنات على نفوسهن وإعراضهن، ولا تزعجوهن بفضولكم وإسفافكم فإننا لم نبعث بهن في تلك السبيل ليفدن شرفهن وعفتهن، بل ليضفن إلى فضيلة الأدب والكمال فضيلة العلم والمعرفة.

افسحوا الطريق لهن، وافسحوا للعاملة الخارجة في طلب رزقها، والأرامل المسترزقة لبنيها، والفقير العاجزة عن قضاء حاجتها إلا بنفسها، والذاهبة لصلة رحمها، والسائرة لزيارة قبر فقيدها، ولا تكونوا حجرة عثرة في سبيل حرية المرأة في ذهابها وجيئتها واضطرابها في مذاهب الأرض سعيًا وراء رزقها، ومصالحها، فإن أبيتم عليها ذلك فاعترفوا أنكم أعداؤها القساة المتوحشون؛ لأنكم تأبون عليها إلا إحدى الخطتين القاتلتين: إمّا الجهل الدائم، أو السقوط العظيم.

الفضيلة الفضيلة أيها القوم! فهي العزاء الوحيد لهذه الأمة السكينة عن جميع مصائبها، والأمل الباقي لها، والشرف الشرف فربما جاء يوم ندير فيه أعيننا من حولنا فلا نجد مما تملك أيدينا شيئًا سواه.

المؤتمر الإسلامي:

سرّني منظر المصلح الإسلامي الشهير إسماعيل بك، وهو قادم إلى مصر يجتاز التخوم، ويتخطى البلدان، ويطوي الغبراء طيّ الكواكب الخضراء يقوده الأمل، ويسوقه الرجاء، وبين جنبيه همة عالية، ونفس كبيرة، يحلق في جو الإسلام تحليق من يحاول أن يظلله بجناحيه.

يحاول أن يرأب الصدع بين جماعة المسلمين، ويلم شعثهم ويجمع كلمتهم، ويؤلف بين قلوبهم، ويدعو إلى الله تعالى دعوة النبوة الأولى.

هنا ذكرت الإسلام، وجنده ودولته، وذكرت أبا بكر وهو يقاتل أهل الردة ويقول: والله لو منعوني عقال بعير لقاتلتهم عليه، وذكرت عمر وهو واقف في مرابض المدينة في حمارة القيظ يستقبل شبحًا أسود يرفعه الآل ويخفضه، ويطويه الأديم وينشره، حتى اقترب منه فتبينه فإذا هو أعرابيّ قادم من سواد العراق فجعل يسايره وهو راجل والأعرابي راكب لا يعرفه ويسأل ما فعل الله به على المسلمين من عرش كسرى وذخائره، وعمر رضي الله عنه فرحًا بما تم، وذكرت صلاح الدين، وهو يقود الجيش إلى حيث يستنفذ الثغور، ويستخلص الأمصار، وذكرت محمد الفاتح وهو يلعب بكرة الأرض لعب الصبيّ بكرته ويخترق بسفائن البحر رمال القفر، حتى نزل القسطنطينية، وسجد في معبد آيا صوفيا سجدة الشكر لله على نعمته وحسن توفيقه، وذكرت صقر قريش وقد طار من الشرق إلى الغرب فأنشأ وحده دولة خضعت لها أفريقيا وبعض أوربا، وذكرت مع أبطال الحرب أبطال السلم؛ فذكرت عمر بن عبد العزيز وعدله، والمأمون وفضله، والغزالي وحكمته، وابن رشد وفلسفته، ومعاوية وسياسته، وعبدالملك وكياسته، وذكرت الآثار العربية والمفاخر الإسلامية.

ثم ذكرت نكبة الإسلام في ظلّ الحياة المادية؛ ما دامت الحكومات عدوة الأديان، لا تستطيع التحليق إلا في فضاء من الحرية لا ينتهي البصر فيه إلى مدى، لذلك ليست الجاهلية الأولى بأحوج إلى الإصلاح الديني من الجاهلية الأخرى، بل ربما كانت هذه أحوج من تلك إليه.

كانت الجاهلية الأولى تعبد الأوثان لتقربها إلى الله زلفى، وجاهليتنا تعبد الأحجار والأشجار، والأحياء والأموات ؛ تبرَكًا، أو تقربًا، لفظان مترادفان، مختلفان لفظًا متفقان معنى، ومن ظنّ غير ذلك فقد خدع نفسه.

كانت الجاهلية الأولى متفرقة قبائل وشعوبًا، وجاهليتنا متفرقة منازل وبيوتًا، بل آحادًا وأفرادًا، فلا تراحم ولا تواصل، ولا تعارف ولا تعاطف، حتى بين الأخ وأخيه، والأب وبنيه.

كانت جاهليتهم تسفك الدماء في طلاب الأوتار، وجاهليتنا تسفكها في سبيل السرقات وقضاء الشهوات، فعلنا مثل ما فعلوا في جرائمهم وفوق ما فعلوا، ثم فضلناهم بعد ذلك بالكثير، يستوي في ذلك الجاهل والمتعلم والشريف الهاشمي والفلاح القروي.

وليتنا إذا أخذنا جاهليتهم أخذناها كما هي رذائل وفضائل فيهون على المصلحين أمرها، ولكنا أسأنا الاختيار، فلنا خرافاتهم الدينية وأدواؤهم الاجتماعية،

وليس لنا كرمهم ووفاؤهم، وغيرتهم وحميتهم وعزتهم ومنعتهم! فكيف لا يكون الأمر خطيرًا، وكيف لا تكون الجاهلية الأخرى أحوج إلى دعوة كدعوة النبوة من الجاهلية الأولى؟

نبئني عن الإسلام أين مقره ومكانه، وأين مسلكه ومضطربه، وفي أيّ موطن من المواطن حل، ومعهد من المعاهد نزل؟

أفي الحانات والمواخير التي يغصّ بها الفضاء وتئن منها الأرض والسماء، وينتهك فيها المسلمون حرمات دينهم؟

أم في حوانيت الباعة حيث الغش والغبن الفاحش مزخرفًا بالأقوال الكاذبة، والإيمان الباطلة؟

أم في مجالس الأحكام، حيث للمال السلطان الأكبر على سلطان العدو والذمة والشرائع؟

أم في المساجد، حيث يعتقد المسلمون أنّ الصلاة هي غفران لسيئاتهم، وفي معاهد الدين يتلقى المتعلمون الدين جسمًا بلا روح، وعلمًا بلا عمل، كأنما يتلهون بدراسة إحدى الشرائع الدائرة، أو أحد الأديان الغابرة، وحيث يتلقون كشكولًا عجيبًا من الأكاذيب أو البدع الدينية، وحيث يقضون حياتهم في المناظرات والمجادلات، والتباغض والتدابر، وهي بعينها الأخلاق والرذائل التي ما جاءت الأديان إلّا لمحاربتها، والقضاء عليها، فهم يهدمون ولا يبنون، ويسيئون ويحسبون أنّهم يحسنون صنعًا؟

أم في مجالس الصوفية حيث الألعاب الجمبازية، والحركات البهلوانية، والسرقات باسم العادات، وانتهاك الحرمات بعنوان البركات؟

إن أراد المصلحون لأنفسهم نجاحًا، وللإسلام صلاحًا؛ فليبدؤوا عملهم بتهذيب العقائد الدينية، وتربية النشء الحديث تربية إسلامية، لا تربية مادية، أي أنهم يدخلون إلى الإصلاح من باب الدين لا من باب الفلسفة، حتى يجمعوا للمسلمين بين صلح حالهم ومآلهم، ودنياهم وآخرتهم، وحتى يكون الدين هو الزاجر والمؤدب، والمعلم والمهذب، والإسلام وإن كان دين العقل والفطرة، والإصلاح، إلا أنّ الخطر كل الخطر على المسلمين أن يكون في نظرهم تابعًا للعقل، وأن يكون العقل الحكم بينهم وبينه، والخير كل الخير في أن يكون الدين حاكمًا والعقل مفسّرًا ومبينًا، فإذا تمّ ذلك للمصلحين بالرفيق والأناة، والحكمة والسياسة، فقد تمّ لها كل شيء، وتمّ للمسلمين ما يريدونه من الجامعتين الدينية والسياسية، كما تمّ لها ذلك في العهد الأول من هذا الباب

نفسه، وفي هذا الجادة المستقيمة، فهل يستطيع دعاة الإصلاح في الجاهلية الحاضرة أن يكون كدعاته في الجاهلية الأولى، وهل يستطيعون أن يخلصوا لله في عملهم جادين مثابرين، لا تأخذهم فيه هوادة ولا عنه سنة، لا يرون فضلًا بينهم إلا التقوى، يتحملون في سبيل الله كل المصاعب؟

هل يستطيع المصلحون أن يكونوا كذلك ليصلحوا في الآخرين ما أصلح المصلحون في الأولين؟ (لست أدري ولا المنجم يدري!)

لعمرك ما تدري الطوارق بالحصى ولا زاجرت الطير ما الله فاعل

الضمير:

أتدري ما هو الخلق عندي؟

هو شعور المرء أنّه مسؤول أمام ضميره عمّا يجب أن يفعل.

لذلك لا أسمي الكريم كريمًا حتى تستوي عنده صدقة السر والعلن، ولا العفيف عفيفًا حتى يعف في حالة الأمن والخوف معًا، ولا الصادق حتى يصدق في أفعاله صدقه في أقواله، ولا الرحيم رحيمًا حتى يبكي قلبه قبل أن تبكي عيناه، ولا المتواضع متواضعًا حتى يكون رأيه في نفسه أقل من رأي الناس فيه.

التخلق غير الخلق، وأكثر الذين نسميهم فاضلين متخلقين بخلق الفضيلة، لا فاضلون؛ لأنّهم إنما يلبسون هذا الثوب مصانعة للناس، أو خوفًا منهم، أو طمعًا فيهم، فإن ارتقوا عن ذلك قليلًا لبسوه طمعًا في الجنة التي أعدّها الله للمحسنين، أو خوفًا من النار التي أعدّها الله للمسيئين.

أمّا الذي يفعل الحسنة لأنها حسنة، أو يتقي السيئة لأنها سيئة فذلك من لا نعرف له وجودًا، أو لا نعرف له مكانًا.

لا ينفع المرء أن يكون زاجره عن الشر خوفه من عذاب النار؛ لأنه لا يعدم أن يجد بين الزعماء الدينيين من يلبس له الشر لباس الخير فيمشي في طريق الرذيلة وهو يحسب أنه يمشي في طريق الفضيلة، أو خوفه من القانون؛ لأن القوانين شرائع سياسية وضعت لحماية الحكومات لا لحماية الآداب، أو خوفه من الناس؛ لأن الناس

لا ينفرون من الرذائل بل ينفرون مما يضربهم، رذائل كان أم فضائل، وإنما ينفعه أن يكون ضميره هو قائده الذي يهتدي به ومناره الذي يستنير بنوره في طريق حياته.

وما زالت الأخلاق بخير حتى خذلها الضمير وتخلى عنها، وتولّت قيادتها العادات والمصطلحات، والقواعد والأنظمة، ففسد أمرها، واضطرب حبلها، واستحالت إلى صور ورسوم وأكاذيب وألاعيب.

الخلق هو أداء الواجب لذاته، بقطع النظر عما يترتب عليه من النتائج فمن أراد أن يعلّم الناس مكارم الأخلاق فليحي ضمائرهم، وليبثّ في نفوسهم الشعور بحب الفضيلة، والنفور من الرذيلة بأية وسيلة شاء، ومن أي طريق أراد، فليست الفضيلة طائفة من المحفوظات تحشى بها الأذهان، بل ملكات تصدر عنها آثارها صدور الشعاع عن الكواكب، والأريج عن الزهر.

مدرسة الغرام:

كنت لا أسأل الله تعالى إلا تقدّم هذه الأمة وارتقاءها، وبلوغها في المدنية مبلغًا يؤهلها لمجاراة الأمم الغربية في عظمتها وسلطانها، فأصبحت أسأله ألّا يستجيب دعائي وألّا تنال فوق ما نالت.

أصبحت أعتقد أنّ مفاسد الأخلاق والمدنية الغربية شيئًا متلازمان وتوأمان متلاصقان، لا افتراق لأحدهما عن صاحبه إلّا إذا افترقت نشوة الخمر عن مرارتها، فكيف أتمنّاها لأمّة أعزّ عليّ من نفسي التي بين جنبي!؟

قرأت حوادث الانتحار في الغرب، فقلت قوم قد ضعفت قلوبهم عن احتمال حوادث الدهر وأرزائه فلم يستطيعوا الوقوف في طريقها وقفة الشجاع المستقل، ففرّوا من وجهها إلى حيث يجدون الراحة الدائمة في أعماق القبور، وما أكثر الجبناء في مواقف الحرب وميادين الجهاد!

قرأت حوادث المبارزة فقلت قوم قد عجزت يد المدنية الحاضرة أن تمثل من بين جنوبهم ما كانوا يعتقدون في عهد الهمجية الأولى من أنّ العرض إناء إذا ألم به القذى لا يغسله إلا الدم المسفوح، وكثيرًا من أوردت العقائد النفوس موارد الحتوف.

فقرأت حوادث عشاق الموتى الذين يتسللون تحت جنح الظلام إلى المقابر فينبشونها عن رفات الفتيات المقبورات، شوقا إلى لئمة من خد يرشح صديده، أو

رشفة من ثغر يتناثر دوده حتى إنّه ليروقهم من منظر الساكنات تحت الرجام فوق ما يروقهم من منظر المقصورات في الخيام.

فلما طاردتهم الحكومة عن أمنيتهم، وحالت بينهم وبين مواطن غرامهم، ومواقف عشقهم وهيامهم، رأوا أن يحتالوا على الإلمام بأولئك الموتى خيالًا لمّا فاتهم الإلمام بهم حقيقة؛ فأنشؤوا لأنفسهم في باطن الأرض قاعة كبرى كسوا جدرانها بالأستار السوداء، ووضعوا في وسطها صندوقًا من صناديق الموتى تنام فيها فتاة حية تتصنع الموت بإصفرار لونها وإسبال جفونها، وسكون أنفاسها، فإذا لجّ بأحدهم الشوق إلى الإلمام بفتاة ميتة نزل إلى تلك القاعة السوداء وعالج مخيلته على أن يتصورها قبرًا موحشًا، يضم بين أقطاره فتاة ميتة لا حراك بها، فيلمّ بها وهو يسمع نغمات الأحزان من قيثارة أعدت وراء القاعة لتجسيم ذلك الخيال.

قرأت هذا وقرأت أنّ منهم من تجاوز به جنونه وهوسه إلى الغرام ببعض أنواع الحيوان، حتى أنهم نصبوا لأنفسهم مواخير خاصة يلمون فيها بالدجاج والبط والأوز إلمام غيرهم بالنساء البغايا، فقلت لا عجب في ذلك. وهل هو الأفن من فنون الجنون التي لا يجد المرء إلى حصرها سبيلًا!؟

إن كنت أغتفر للمدنية الغربية كل ذنوبها فإني لا أغتفر لها ذنبها في مدرسة الغرام التي أنشأها قوم من الأمريكيين في وسط مدينة من مدن أمريكا ليعلّموا فيها النساء والرجال فنون الحب والمغازلة جهرة من حيث لا يرون في ذلك بأسًا ولا يجدون فيه متلومًا!

هل سمعت في حياتك أنّ أمّة من الأمم المتوحشة التي يسمونها الأمم البهيمية إشارة إلى ما بينها وبين البهائم من حبّ الشهوات والاستهتار فيها قد بلغت في تهتكها وفساد أخلاقها مبلغ تلك الأمة التي يقولون عنها أنها زهرة المدينة الحديثة، وتاجها المرصع.

لماذا نسمي الزنوج قبائل متوحشة، ونحن نعلم فيما نعلم من أخلاقهم أنهم لا يتركون عزابهم ينامون وسط البيوت مخافة أن يكون لهم سبيل إلى مخالطة النساء، فيأخذونهم جميعًا إلى مكان خاص بهم خارج القرية يبيتون فيه فوق هضبة مرتفعة ينثرون حولها ترابًا معبّدًا، حتى إذا أراد أحدهم أن يختلس من ظلام الليل غرة نمّ أثره عليه، كما نعلم أنهم يخيطون فروج العذارى حيطة وحذرًا ليحفظوا أعراضهن لأزواجهن سالمات بريئات! ولماذا تسمّى الأمة الأمريكية أمة متمدّنة وها هي ذا تفتح

المواخير باسم المدارس حتى لا تكون في نفس أحد من الناس غضاضة في دخولها، والأخذ بنصيبه من لذائذها وشهواتها!

إذا كان توحش الأولين لإغراقهم في صون الأعراض، والحيطة لها فالآخرون أكثر منهم توحشًا لإغراقهم في هتكها وابتذالها، والإغراق في الخير، خير من الإغراق في الشر.

فيأيها الزنجي المسكين، لقد ظلمك من سمّاك متوحشًا، ويأيها الأمريكي المتوحش لقد كذبك من سماك متمدّنًا.

أيها الزنجي الأسود، إن كنت أسود اللون، فالفضيلة أعلى قدرًا من أن تتنزل لاعتبار السواد ذنبًا تنفر منه، وجريمة لا تغتفرها! وإن كنت جاهلًا فهل استفاد صاحبك من علمه إلا إمتاع نفسه بشهواتها ولذائذها، والتقنن في فجور الحياة وفسوقها تفنّنًا لا أحسبك تحنّ إليه،

الفضيلة ثوبًا يحسدك عليه، لو يعقل ذلك الذي يفخر عليك بخزه وديباجه ودمسقه وحريره.

ولو بتّما عند قدريكما لبتّ وأعلا كما الأسفل

أمس واليوم:

مثلنا ومثل آبائنا الأولين من قبل طلوع شمس هذا التمَديُن الحديث ومن بعده كمثل رجل ضلّ به طريقه في ليلة ليلاء حالكة الظلام، فأنشأ هذا الضال المسكين يخبّط في ذلك الديجور ترفعه النجاد، وتخفضه الوهاد لا يرى علمًا فيهتدي به، ولا يتنوّر نجمًا فيعتمد في سراه عليه.

وإنّه لكذلك وقد استوت في نظره الجهات الست، فسماؤه أرض، وأرضه سماء، ووراءه أمام، وأمامه وراء، وإذا بقرن الشمس قد نجم في جبهة الأفق، وأفرغ ناظره المملوء بالظلمة قطرات ملتهبة من ذائب أشعته المتلألئة فعشى بعد أن كان بصيرًا فما أغنى عنه ذلك الضياء شيئًا، وما زال في ضلاله القديم، إلا أنّ ذلك ضلال القديم، وإلا أنّ ذاك ضلال الظلام، وهذا ضلال الضياء وهو شر الضلاليين، وأقتل الداءين؛

فإنّ ضلال الظلام يتخلله بريق الأمل في الضياء، فأمّا وقد أصبح الدواء داء فلا أمل في الشفاء...

لو بغير الماء حلقي شرق كنت كالغصان بالماء اعتصاري

ذلك مثلنا ومثل آبائنا من قبلنا بين يدي هذه المدينة الجديدة التي همي سيلها على هذا العالم الإنساني فرأى الغرب تربة طيبة صالحة فسقاها فاهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج، ورأى الشرق تربة طيبة صامتة متحجرة قد نجم فيها كثير من الأعشاب الضعيفة، والجذور الفاسدة، فأمّا تحجر منها، فلم تغن عنه السقيا شيئًا، وأمّا ما اخضر وترعرع فقد نما فاسدًا كأصله وكان خيرًا له لو ذهبت ذلك الفيضان به وبجذوره.

أي أنّ المدينة الحديثة تمشّت في صدر الغرب بقدم متثاقلة فما خفق لها قلبه ولا اضطرب، وثمّ وضعت يدها في أيدي الغربيين فصعدت بهم إلى سمائها خطوة خطوة كما يعود الطفل الصغير على المشي وما أعجلتهم عن أمرهم كما أعجلتنا، فبلغوا ما أرادوا، وهوينا إلى أعمق مما كنا، كالحجر الثقيل يرمي به في الجو، فإذا ارتد؛ ارتد إلى حفرة يدفن نفسه فيها.

أي أنّ الغربيين أحسّوا، فنهضوا، فجدّوا، فأثّروا، فتمتعوا بثمرات أعمالهم ونحن أغفلنا جميع هذه المقدمات، ووثبنا إلى الغاية وثبًا فسقطنا!

فمهما كان نصيب آبائنا من الجهل، وانفراج المسافة بينهم وبين هذه المدنية الحاضرة، فقد كانوا على علاتهم أسعد منّا حالًا وأروح بالًا، وأهنأ عيشًا، وأسدُ خطوات في سبيل الحياة، وكانت المعيشة فيهم اجتماعية أكثر منها فردية؛ فكانت الأسرة الواحدة أشبه شيء بالمملكة الدستورية المنتظمة يديرها عقل واحد في جسوم كثيرة متفقة في الرأي والدين والمذهب والأخلاق والعادات، ويفرون من العادات والمشارب الغربية عنهم فرارهم من الأسد؛ مخالفة أن يرق هذا الحاجز القائم بينهم وبين الأمم الأخرى فتنحل جامعتهم، فتهدأ حميتهم، فتجمد نفوسهم، فإذا هم ميتون ثمّ لا يلبثون.

وكان بين الصغار في الأسرة والكبار فيها معاهدة رحمة واحترام.

فمن لنا بتلك السعادة التي ألكتنا إياها المدنية الغربية يوم أظلتنا بعلومها ومعارفها، ومخترعاتها الخالية، وزخارفها اللامعة الباطلة، فانقلبت المعيشة البيتية اجتماعية فردية محضة فالأخوان متناكران، والزوجان متنافران، والولد شقي بأبيه، والأب شقي بولده، وكأنّ ساحة المنزل ساحة الحرب، وجوه مقطبة، ونفوس منقبضة، وشقاء ليس بعده شقاء.

ومن كان في شك من هذه الحقائق فلينظر إلى جداول القضايا في المحاكم فإن لم يرَ أنّ أكثر المخاصمات فيها -خصوصًا المدنية منها- واقعة بين الأقارب وذوي الرحم، فله حكمه ما شاء.

إن أبيت إلا أن تتمثل لك الحقيقة بأكمل وجوهها، انظر إلى حال كثير من الأسر ترى أولادهم وقد دخلوا مدارس مختلفة تعلموا فيها لغات مختلفة، ثم تخرجوا، وجميعهم متفرنجون مشربًا ومذهبًا ومطعمًا وملبسًا ومسكنًا، وما فيهم من تفرنج همّة وعملًا.

خرجوا من المدارس بلا دين ولا وطن، أمّا الدين، فلأن أكثر مدارسنا حتى الأهلية منها مادية محضة لا تعلق للدين بشأن من شؤونها والدين خلق شأنه كبقية الأخلاق، ولا يرسخ في النفس إلا بتكرار الصور الدينية وتداولها عليه، فإن بعد عهدها به أغفلته وأنكرته، وكذلك كان شأن هؤلاء الأولاد المساكين فقست قلوبهم، وجمدت نفوسهم، وفقدوا بفقد دينهم أطيب عزاء يستروحه الإنسان في هذه الحياة المملوءة بالمصائب، الحافلة بالكوارث والهموم.

والإنسان مهما طال حوله، وكثر طوله، واتسعت مذاهب قوته، فليس ببالغ من دهره المعاند ما يريد، لولا زهرة الأمل التي يتعدها الدين بالسقيا في قلب المؤمن، فيستروح منها ما يروّح عن قلبه، ويسري عن نفسه، ولولا يقينه أنّ هناك حولًا أكبر من حوله، وطولًا أعظم من طوله، وإلهًا قادرًا يقرّب إليه ما يريد مما ضاق به ذرعه، وعيت عنه قوته.

وأمّا الوطن، فلأنّ المدارس عندنا تديرها أيد أجنبية تربي التلاميذ لها لا لأوطانهم،

فكنت ترى منزل الأسرة الواحدة كأنما هو مجمع من مجامع السفراء، تركي متمسك بتركيته، وإنكليزي يهتف ليله ونهاره بأن الدولة الإنكليزيَة سيدة البحار، وأنّ الشمس لا تغيب عن أملاكها، وفرنسي يعبد فرنسا ويسبح بحمدها، ويصفها بأنّها أمّة العدل والرحمة، وأنّ أسعد المستعمرات مستعمراتها، وألماني يستظهر خطب

الإمبراطور، ويتكهّن أنّ المستقبل لألمانيا يوم يمحي اسم إنكلترا وفرنسا من مصورات الجغرافيا، وكثيرًا ما يقع بينهم الشقاق فيما بينهم من أجل تلك الدول، ولا يتفقون إلّا في الساعة التي يذكرون فيها أمتهم، فإنهم يمثلونها لأنفسهم وللناس أقبح تمثيل ويلبسونها ورجالها قديمًا وحديثًا أثواب المراقع المضحكة، فبئس الاختلاف حين يختلفون ولا حبّذا الاتفاق يوم يتفقون.

وهكذا انحلّت الجامعة في المنازل، وتفرق أفراد الأسرة أيّما تفرّق وانقسموا على أنفسهم كل الانقسام، حتى أصبح لكل منهم من المأكل والمشرب والملبس وجميع مرافق الحياة ما يطالبه به خلقه المباين لخلق أخيه وأمه وأبيه.

فأنّى لهم التعاضد الذي كان لآبائهم من قبل في خوض غمرات الحياة، وأنّى لوطنهم أن يسعد بهم بعد عجزهم عن إسعاد أنفسهم.

وأيّ شأن لهذه المعلومات الكثيرة التي حشوا بها أذهانهم، وهل أفادوا بها إلّا هذرًا في المنطق، وثرثرة في اللسان، وشغلًا للأذهان لا يغني عن سعادة الحياة وهنائها فتيلًا!

ولو عقلوا أنّ ذلك العلم القليل الذي كان يعلمه آباؤنا ونسميه جهلًا وهمجية، هو خير من علمنا الكثير المستفيض الذي نساجلهم به وننعي عليهم تاريخهم من أجله؛ لأنهم كانوا بقليلهم يعملون ما نعجز عنه نحن بكثيرنا.

أجل، على الرغم من جهلهم في أقسام الأرض، ولكنهم كانوا يعلمون أنّ وطنهم حيثما حلّ من أقسام الأرض محبوب لديهم، وأنّ عروة الأخوة لا تنفصل بين أبناء الوطن الواحد، يسعدون معًا باستقلالهم ويشقون معًا إذا امتدت اليد الأجنبية لهم، وكانوا يعتقدون في كثير من الخرافات والأوهام، ويطأطئون رؤوسهم بين يدي رؤساء الأديان تحنّثًا وتعبّدًا، وعندي أنّ دينًا خرافيًّا خير من لا دين له؛ لأنّ المعبودات الوهمية في نفوس العابدين لها سلطانًا قاهرًا يقاوم أهواء الشر فيها، ويطهّرها من كثير من الرذائل فشت بين طبقات المتعلمين، والتي تعيأ بها القوانين الشرعية والوضعية.

وجملة الحال أنهم كانوا يجهلون أكثر مما نعلم، ولكن لم يجنِ عليهم جهلهم أكثر مما جنى علينا علمنا، وكانوا محرومين أكثر مما ننعم به اليوم، ولكنهم لم يكونوا محرومين فيما بينهم وبين أنفسهم شيئًا من هذا كله؛ لأنهم ألفوا معيشتهم البسيطة كما ألفنا نحن هذه المعيشة المركبة، فنحن وهم سواء في الرضا بحالتينا، إلا أنّ معيشتنا يكدرها الفقر والإفلاس الآجل أو العاجل، ومعيشتهم لم يكن يكدرها من ذلك شيء.

لكن المدنية الحاضرة قلبت الكماليات في نظرهم إلى حاجيات، وخرجوا أولادهم من المدارس بلا دين ولا وطن أرادوا أن لا يبقوا في قوس الحربة منزعًا فأطلقوا لأنفسهم العنان في سبيل الشهوات واللذائذ، فأصبحوا كلًّا على أهلهم والناس، لم ينفعهم علمهم، ولم تغن عنهم شهادتهم وباعوا في وقت التشبّه بالغرب كل ما تملك إيمانهم وقلوبهم، وبعد أن ملكت الشهوات قيادهم، واتباع ما حسن لفظه وقبح معناه من الغرب، فتبدل النعيم شقاء، والسعادة فقرًا، هذا حال معظم الأُسر إلا ما رحم الله، فلو أنّ باكيًا بكى على حال هذه الأُسر وما آلت إليه فهو إنما يبكي أمة كاملة

لقد لامني عند القبور على البكا رفيقي لتذراف الدموع السواقف

فقلت له إن الآسي يبعث الأسى دعوني فهذا كله قبر ملك

وجملة القول، إنّ للحاضر سيئات فوق سيئات الماضي، فلا خير في العصرين، ولكن ويلًا أخف من ويلين، والأمم لا تسعد بمعرفة الخير والشر معروفان حتى لأمّة النمل، وإنما سعادتها في معرفة خير الخيرين وشر الشرّين، ولئن دام هذا الحال، واطرد المقياس، فالغد شر من اليوم، كما كان اليوم شرًّا من الأمس.

المرقص:

حدّث أحد الأصدقاء قال: ذهبت ذات ليلة إلى مرقص من مراقص الأوزبكية ولم أكن زرته ولا زرت غيره من قبل، فرأيت على بابه جنديًّا فذعرت لمرآه، وتراجعت قليلًا قليلًا... وكنت أعتقد أنّي أخطأت الطريق، ووقفت ساعة أتردد بين الإقدام والإحجام حتى لمس كتفي لامس فالتفتُّ ورائي فإذا صديق من أصدقائي يسألني: ما وقوفك هنا؟ فقلت: أراك تشاركني في الفعل وتفردني بالعجب، فقال: أنا أفتش عن ابن عمي، قلت: وأنا أفتش عنك، فابتسم وقال: هيا بنا ندخل قبل أن تمتد سلسلة التفتيش إلى حيث ما لا نهاية له، وأمسك بيدي حتى جار بي باب المرقص، ما هذا الجندي الواقف أمام الباب؟ قال: كيف ذهب عنك أنّ حكومتنا قد أصبحت اليوم حكومة مدنية لا أدبيّة، فتساوت في نظرها (المصالح) والمراقص، واختلط الأمر بين

مواقف القضاء، ومعاهد البغاء، فأصبح الجندي يحمي أبواب العاهرات كما يحمي أبواب الوزارات، ويقف أمام البارات موقفه أمام الإدارات.

وإنّ العين لا تملك مدامعها سخًا وتذرافًا كلما أبصرت هذا الجندي الظريف واقفًا هذا الموقف الذليل، يسمع قراع الدفوف لا قراع السيوف، ويرى حمرة الصهباء لا حمرة الدماء، ويحمي الفسق والفجور، لا القلاع والثغور!

وصلت إلى قاعة المرقص فرأيت الدنانير ذائبة في الكؤوس، والعقول جامدة في الرؤوس، والحبائل منصوبة لاستلاب الجيوب، والسهام مسددة لاصطياد القلوب، ورأيت من كنت أحسبه أوفر الناس عقلًا، وأذكاهم قلبًا، ومن كنت أراه فأغضى بين يديه إجلالًا وإكبارًا، واقعًا في حبالة بغي تقيمه وتقعده، وتطويه وتنشره، وتعبث به عبث الطفلة بلعبتها؛ وهو في غير هذا المكان قيصر الرومان عزة وفخارًا، وكسرى فارس أنفة واستكبارًا.

رأيت من وهبه الله عقلًا وعلمًا، يجلس في المرقص فتمرّ به البغي فما هي إلّا ابتسامة خالية، أو كلمة كاذبة، حتى يقسم بكل محرجة من الإيمان، إنّ نفسه صادقة فيما حدّثته، وأنّ الفتاة علقت به علوقًا لا نجاة لها من بعده إلى يوم يبعثون.

فيبذل لها ما يشاء من نفسه وشرفه وماله، ويرى ذلك قليل في جانب ما تبذل من دقائق تقضيها بين يديه، وابتسامات تجود بها عليه.

رأيت هناك كل حاسة من الحواس قد لبست منظارًا يكبّر المنظورات، ويضاعف المسموعات، تغنّي المغنية بصوت مضطرب النغمات، بارد الترجيعات، ثقيل الحركات والسكنات، فتمتلئ أرجاء القاعة بالآهات، وتدوي فيها الصيحات المزعجات، وتطلّ العجوز فتطير حولها القلوب، وتترامى تحت أقدامها الوجوه، فقلت في نفسي. أهذا هو المرقص الذي تخرب فيه البيوت العامرة، وتذبل فيه الرياض الزاهرة، وتتدفق فيه الأموال الغزار؟

والله لا يبلغ العدو منّا بخيله ورَجِله وأساطيله وقنابله، ولا الأرض بزلازلها وبراكينها، ما يبلغ منّا المرقص ببغاياه.

قال المحدّث: والحق أقول إني دخلت المرقص وأنا احسب أنّي أنفّس عن نفسي كربة، فرأيت ما زاد نفسي همًّا، وملأ قلبي غيظًا، فقلت لصاحبي هل لك في القيام؟ فقام وقمت وأنا اقول: والله ما أدرى ما ترك هذا المكان، للمارستان!

الماضي والحاضر:

عندي أنّ الفضيلة والرذيلة كالجمال والقبح، أمران اعتباريان باختلاف الأمكنة والأزمنة، فكما أنّ الجمال في أمّة قد يكون قبحًا في أمّة أخرى؛ كذلك الفضيلة في عصر، قد تكون رذيلة في عصرٍ آخر.

ليست الفضائل والرذائل أسماء توقيفية كأسماء الله تعالى؛ لا يمكن تغييرها ولا تبديلها، وليست الفضيلة فضيلة إلّا لأنّها طريق السعادة في الحياة ولا الرذيلة رذيلة إلّا لأنها طريق الشقاء فيها، فحيث تكون السعادة في صفة فهي الرذيلة، وإن كانت صفة الكرم.

اعتاد علماء الأخلاق في كل زمان ومكان من عهد آدم إلى اليوم أن ينشروا لنا في كل كتاب يؤلفونه أو رسالة يدونونها جدولين ثابتين لا ينتقلان ولا يتحلحان، يكتبون على رأس أحدهما عنوان (الفضائل) وتحته كلمات الشجاعة والكرم والأمانة والوفاء بالعهد... وعلى رأس ثانيهما عنوان (الرذائل) وتحته كلمات الجبن والبخل والغدر والخيانة... وأرى أنّه قد آن لهم أن يعلموا أنّ الناس اليوم غيرهم بالأمس، وأنّ أساليب الحياة الحاضرة غير أساليب الحياة الماضية، وإنّ كثيرًا من الصفات التي كانت في عهد البداوة والسذاجة رذائل يحتويها الناس ويتبرمون بها، ويستثقلون منها قد أصبحت في هذا العصر عصر المدنية المادية المؤسسة على المنافع والمصالح حالة واقعة مقررة في نظام المجتمع البشري، وأسسًا ثابتة تبنى عليها جميع أعماله وشؤونه، فلابدّ للناس منها، ولا غنى لهم عنها، ولا مندوحة لهم إن أرادوا أن يخوضوا معترك الحياة مع خائضيه من أن يتعلموها تعلمًا نظاميًا، ويدرسوها مع ما يدرسون من علوم الحياة التي يتوقف عليها نظام عيشتهم ويتألف منها شأن سعادتهم وهنائهم.

كان الكرم فضيلة يوم كان الناس يحفظون الجميل لصاحبه، فإذا هوى به كرمه في هوة الفقر، أنكر الناس الجميل، واستثقلوا حمله على عواتقهم، بل أصبحوا من الشامتين به، ويصبون على رأسه جميع ما في الكتب من مترادفات الجنون وألقابه، فليس الركم فضيلة، وليس من الرأي الدعاء له والحض عليه.

وكانت الرحمة فضيلة يوم كان الناس صادقين في أحاديثهم عن أنفسهم، فلا يعترف بالبؤس إلا البائس، ولا يلبس القديم إلا من عجز عن لبس الجديد، أمّا اليوم وقد ذلت النفوس، وسفلت المروءات، فلبس ثوب الفقر غير الفقير، وانتحل البؤس غير البائس، وأصبح نصف الناس كسالى متبطلين لا عمل لهم إلا اللجوء إلى ظلال القلوب الرحيمة يعتصرونها، فالرحمة هي الفقر العاجل، والخسران المبين.

وكانت الشجاعة فضيلة يوم كان الناس ينصرون الشجاع ويؤازرونه ولا يتخلون عنه ولا يخذلونه حتى يتمّ له الظفر الذي يريد، أمّا اليوم وقد فترت همم الناس، ووهمت عزائمهم، وماتت في نفوسهم الغيرة، ووكل كل أمر إلى صاحبه، فإن رأوه قائمًا بدعوة وطنية أو اجتماعية أغرّوه بالمُضي فيها، وقفوا عن كثب ينظرون ماذا يفعل فإن ظفر هتفوا له، وانحدروا إليه يقاسمونه الغنيمة التي غنمها، وإن فشل خذلوه، وتنكروا له، فالشجاعة لا يجد صاحبها من ورائها إلا التهلكة والشقاء.

وكانت القناعة فضيلة يوم كان الفضل هو الميزان الذي يزن به الناس أقدار الناس وقيمهم، ويوم كان الفقر مفخرة الشريف إذا عقدت يده، وعزفت نفسه.

والغنى معرّك للدنيء إذا سفلت مساعيه وأغراضه، أمّا اليوم أصبح الناس يتعارفون بأزيائهم ومظاهرهم، قبل أن يتعارفوا بصفاتهم وأفعالهم، فالقناعة ذل والحياة عارها، وبؤسها الدائم، وشقاؤها الطويل.

وكان الغضب رذيلة يوم كان الناس يعرفون فضيل الحلم ويقدرونها قدرها ويطأطئون رؤوسهم إجلالًا لصاحبها، أمّا وقد أصبح الناس أشرارًا يحملون شرورهم على كواهلهم، ويدورون بها في كل مكان، فلا خير في الحلم، والخير كل الخير في الغضب.

الحياة معترك أبطاله الأشرار، وأسلحتهم الرذائل، فمن لم يحاربهم بمثل سلاحهم هلك عند الصدمة الأولى.

يجب أن يكون الناس جميعًا إمّا فضلاء ليسعدوا بفضيلتهم، أو أدنياء ليتقي بعضهم بأس بعض، أمّا أن يتقلّد سوادهم سلاح الرذيلة، والنزر القليل منهم سلاح الفضيلة وهو أضعف السلاحين وأوهاهما فليس لذلك إلا معنى واحد: هو أن يهلك أشراف الناس وفضلاؤهم، في سبيل أدنيائهم وأنذالهم.

إنّ الدعاء إلى الأخلاق الكريمة في هذا العصر، إنما هو حبالة ينصبها الأقوياء الماكرون للضعفاء الساذجين ليخدعوهم بها عن مائدة الحياة التي يجلسون عليها، فيستأثروا بها من دونهم، فلا يدعو الداعي إلى الكرم إلا لينقل ما في جيوب الناس إلى جيبه، ولا إلى العفو إلا ليصيب بشره من يشاء دون أن يصيبه شئ، ولا إلى القناعة إلا ليقلل من سواد المزاحمين له على أعراض الحياة ومطامعها، ولا إلى الصدق إلا ليتمتع وحده بثمرات الكذب ومزاياه.

كلنا يكذب، وكلنا يبتسم لعدوه وصديقه ابتسامة واحدة، فلمَ نستنكر الرياء والمصانعة؟ وكلنا يطمع في أن تكون له وحده جميع خيرات الأرض وثمراتها، وكلنا يتربص بصاحبه الغفلة ليختله عما في يده، فلمَ نشكو من الظلم والارهاق؟

إننا لا نفعل ذلك إلا لأنّنا نريد أن نستخدم الفضيلة في أغراضنا ومآربنا كما كان يستخدم رجال الدين الدينَ في الأعصر الماضية.

يجب أن يتعلم الطفل من أول يوم يجلس فيه أمام مكتب مدرسته أنّ الموجود في الحياة غير الموجود في الكتب، وأنّ قصص الفضائل التي يقرؤونها ونوادر المروءات والكرم والإيثار، وأحاديث الشهامة والشجاعة وعزة النفس وإبائها إنما هي روايات تاريخية فقد مضت وانقضى عهدها، حتى لا يصبح ناقمًا على العالم يوم ينكشف له وجهه، ويرى سوءاته وعوراته وحتى لا يضيع عمره بين التجارب والاختبارات.

الشرَ لا يقاوم إلا بالشر، والظلم لا يدفع إلا بالظلم، والظالم لا يظلم إلا إذا وجد بين يديه ضعيفًا، والمحتال لا يحتال إلا إذا وجد أمامه غبيًّا، والناس لا يتحامون ولا يتحاجزون ولا يأمن بعضهم بأس بعض إلا إذا برزوا جميعًا في ميدان واحد، ويتقلّدون سلاحًا واحداً، من نوع واحد.

من أراد الفضيلة فسبيلها المقدس الشريف معروف لا ريبة فيه فليسلكه كما يشاء، ومن أرادها على أن تكون وسيلة من وسائل العيش، في عصر مثل هذا العصر، وناس مثل هذا الناس، فليعلم أنّه قد أخطأ الطريق، وأضلّ السبيل.

ما أجمل الفضيلة وما أعذب مذاقها وما أجمل العيش في ظلالها، لولا أنّ شرور الأشرار وويلاتهم قد حالت بيننا وبينها، فرحمة الله عليها وأسفًا على أيامها وعهودها.

الشيخوخة المتمردة:

حدث منذ عهد قريب أنّ أحد الوجهاء الريفيين كان يختلف إلى أسرة كريمة ليخطب إليها فتاة من فتيانها لابنه، ثمّ اتفق أن وقع نظره على تلك الفتاة عرضًا فشغف بها حبًا وخطبها لنفسه، فلم يرَ أهلها مانعًا من أن يزوجوها منه؛ لأنّه أكثر من ابنه مالاً، وأوسع جاهًا وسلطانًا، فكانت نتيجة ذلك أن هجر الابن منزل أبيه هجرة لا

رجعة له من بعدها؛ لأنه كان يحب الفتاة، وأصاب الفتاة ذهولًا شديدًا لا يزال ملازمًا لها حتى اليوم، وأصبح الشيخ حزينًا بائسًا؛ لأنه أصبح بلا زوجة ولا ولد.

سمعت بهذه الحادثة فتألمت لها كثيرًا! ثمّ قرأت حادثة أخرى وقعت في فرنسا العام الماضي، سأقصها لتوازن بين الحادثتين كما وازنت، ونستنتج منهما ما استنتجت:

فُجعت سيدة اسمها "مارجريت بونفيل" بوفاة زوجها وهي في الخامسة والثلاثين من عمرها.

وكانت بارعة الجمال، فاستوحشت لوفاة زوجها استحياشًا شديدًا وبدأت تختلف إلى بعض الأندية العامة؛ علّها تروّح عن نفسها وحشتها وكآبتها فاتصلت هناك بفتى من نبلاء الفتيان أعجبها جمالَ صورته ورقة آدابه.

فأحبته وافتتنت به وأضمرت في نفسها أن تتذرع بكل ما تعرف من الوسائل للزواج منه، وان كان أصغر منها سنًّا بنحو عشر سنين.

فلم تزل تتودد إليه حتى نزلت من نفسه المنزلة التي تريدها، وكانت إذا جلست إليه للحديث معه يتردد على لسانها كثيرًا ذكر ابنتها التي خلفتها من زوجها المتوفي، فكان يخيّل إليه أنّ تلك الابنة طفلة في الخامسة أو السادسة من عمرها، حتى زارها في منزلها يومًا من الأيام فحمل معه لطفلتها هدية من اللعب التي يحبها الأطفال ويطربون لها، فلما وقع نظر "مرجريت" عليه وعلى ما يحمل، ضحكت وقالت: ما هذا الذي تحمل؟ قال: إنها هدية لـ"ماري" أريد أن أقدّمها إليها، وأين هي؟ فأرادت العبث به وقالت له: إنك تجدها في الجهة الشرقية من الحديقة على شاطئ الجدول، فاذهب إليها وقدم لها هديتك بنفسك.

فذهب حيث أشارت، فراعه أنه لم يجد أمامه طفلة في السادسة من عمرها كما يظن بل فتاة كاعبًا رائعة الجمال في السادسة عشرة، فوقف أمامها موقف الحائر الذاهل لا يدري ماذا يفعل ولا ماذا يقول، حتى رنت من ورائه ضحكة "مرجريت" وكانت قد تبعته من حيث لا يشعر فأرفض جبينه عرقًا، وتقدمت "مرجريت" نحو ابنتها وقالت لها: أقدّم لك يا "ماري" صديقي "جورج" الذي حضر اليوم ليهديك حصانًا خشبيًا، فهل تحسنين ركوب الخيل الخشبية؟ فابتسمت "ماري" وفهمت القصة، فأثر في نفسها خجل "جورج" وارتباكه فمشت إليه ووضعت يدها في يده وقالت له: أشكر لك هديتك سيدي، وأتقبلها منك باغتباط وسرور، وأعدك أني سأحفظها لك عندي

تذكارًا دائمًا لا أنساه، فسرى عنه ما لحقه من الخجل وجلسوا جميعًا يتحدثون ويسمرون، ومرّ لهم أطيب يوم مرّ لأحد حتى أظلهم الليل فأستأذن "جورج" وعاد إلى منزله.

وأصبح بعد ذلك يختلف إلى منزل مرجريت لا من أجل الأم وحده بل من أجل الأم والبنت، حتى حضر صباح أحد الأيام، وكانت الأم قد خرجت لبعض شأنها، فوجد "ماري" وحدها، فشعر في نفسه بشيء من الارتياح، لم يكن يشعر بمثله من قبل، وكأنه يتمنى أن يجدها خالية فوجدها، وكانت جالسة على شاطئ الجدول في المكان الذي رآها فيه أول ما رأها، فجلسا معًا يتحدثان حديثًا طويلًا ذهبا فيه مذاهب مختلفة، حتى أشرفا على ذلك المورد العذب من الحب، فورداه، فإذا كل منهما يضمر لصاحبه من الوجد فوق ما تضمر الأفئدة والقلوب، وإنهما لمضطجعان وجهًا لوجه على ذلك البساط الأخضر الجميل، إذ وقفت بهما الأم من حيث لا يشعران فرابها منظرهما، وخيّل إليها أنهما يتحدثان في شأن غير الشأن الذي يأخذان فيه عادة أمامها فأصغت إليهما، فألمّت بطرف من حديثهما، فدارت بها الأرض الفضاء دورة كادت تصعق فيها، وتمثل لها أن صرح حياتها الشامخ قد خرّ بين يديها دفعة واحدة، فثارت من حولها عبرة قاتمة حجبت عنها الرؤيا فأملست من المكان إملاسًا ومشت تتحامل على نفسها وبكت حتى هدأ بعض ما بها، فمسحت عبرتها بيدها فإذا المرآة أمامها، وإذا الشيب قد تخلل شعرها يهتف بها أن قد انقضى عصر شبابك أو كاد، وقد خطوت الخطوات الأولى إلى شيخوختك، فأخلي مكانك لابنتك، فهي أولى به منك، وحسبك من السعادة أن تفرحي لفرحها، وتهنئي لهنائها، ومرت بها ساعة كاملة كانت فيها عواطف قلبها ونوازعه تعترك فيها اعتراكًا وكان يميل بها الميزان نحو نفسها مرة ونحو ابنتها أخرى، حتى غلبت نزعة الخير فيها على نزعة الشر، فخرجت من غرفتها باسمة منطلقة حتى وصلت إلى مكانهما، فرأتهما مستغرقين في شأنهما الذي كانا فيه لا يشعران بشئ مما حولهما، فصاحت بهما: أأنتما هنا يا ولداي؟ فاضطربا إذ رأياها، فابتسمت لهما ووضعت يدها في أيديهما وعادت بهما إلى غرفتها، وجلست تتحدث إليهما حديثًا طويلًا انتهى بعقد الخطبة بينهما، وما هي إلا أشهر قلائل حتى زفّت إليه، وولدت لهما بعد عام واحد طفلة كان نصيبها ذلك الحصان الخشبي الذي أهداه أبوها لأمّها منذ عامين حين ظنّ أنها طفلة في السادسة من عمرها.

استطاعت "مرجريت" أن تعيش بعد ذلك سعيدة هانئة في ظل سعادة ابنتها وهنائها.

ذلك ما فعل الرجل في السبعين من عمره، وهذا ما فعلت المرأة وهي نصف لا إلى الشيخوخة ولا إلى الشباب فجوزي هو على تمرده على الطبيعة، وخروجه عن سنتها شر الجزاء، وجوزيت على تعقلها ورزانتها، وتأدبها بأدب الحياة، أحسن الجزاء!

عجائز بوشنج:

القاعدة المطردة في هذا البلد أنّ الرجل إذا ابتسم له دهره يومًا من الأيام فنقله من أرض الخصاصة والفقر، إلى سماء الثروة والغنى، بنى بينه وبين ماضيه سدًّا محكمًا لا تنال منه المعاول، ولا تعصف به العواصف، ثم ألقى وراء ذلك السد جميع متعلقات ذلك الماضي، ولو استطاع أن يلقي بالأثرين الوحيدين الباقيين له: صورته واسمه لفعل.

إنه يفعل ذلك؛ لأنه يعتقد أن الفقر عيب وعار، فإن كان لابد أن يرى ذلك فليعلم أنه قد قضى على أبويه وعشيرته وأصدقائه، بل السواد الأعظم من أمته بل على نفسه أيضًا؛ لأنه قضى عصر شبابه، والشباب هو الحياة من مبدئها إلى منتهاها، في الفقر وغيره.

ولا أدري ماذا يكون شأنه غدًا إذا استرد الدهر هبته منه، وكثيرًا ما يسترد الدهر هباته وعطاياه، بل لا يكاد يهب هبة، أو يمنح منحة حتى يستردها.

وله العذر في معايشة كلتا الحالتين الفقر والغنى بما فيها من تغيير، ولكن لا عذر له في زوجة طلقها واستبدل سواها.

إنها رفيقة حياته، وشريكته في السراء والضراء، فليس من الرأي ولا من الوفاء أن يخلعها فيما يخلع من أثوابه وأرديته وأن يلقيها وراء ذلك السد كما يلقي نعله وأداءه.

أيريد أن يتمنى النساء جميعًا لأزواجهن دوام الفقر والفاقة حتى لا يستبدلوا بهن يوم يجدون السبيل إلى ذلك؟

إنّهن يتمنين ذلك فعلًا، بل يسعين له سعيهن؛ لأنهن يجدن الأمان على أنفسهن في ضاحية الفقر، أكثر مما يجدنه في ظلال الغنى!

حدّثني من أثق به أنه دُعي إلى وليمة أقامها أحد أولئك حديثيّ النعمة فلما قضوا ليلتهم وانصرفوا؛ لفت نظرهم منظر امرأة بائسة واقفة تحت جدار البيت تتحدث إلى بعض الناس وتقول لهم: إنها سيدة هذا البيت بالأمس، وأنّ زوجها طلقها وطردها هي وطفلها الصغير في اليوم الذي أنعم الله فيه عليه بنعمة الغنى، وليته صنع بها ما يصنع الكريم بأهله، فكفّاها مؤونة العيش وحماها عادية الشقاء، بل تركها في قريتها وحيدة منقطعة، ولا ذنب لها سوى أنه أصبح ذا زوجة جديدة، وولد جديد، وقالت إنها تحاول منذ ساعتين أن تدخل المنزل لتقابله وتسأله المعونة والمساعدة فيمنعها الخدم.

لا يجد المرء لذة الطعام إلا إذا ذكر الجوع، ولا لذة الماء إلا إذا ذكر الظمأ، ولا لذة السعادة إلا إذا تمثل أمام عينية عهد الشقاء، فما أحوجه إلى تذكر العهد الأول وأناس كان معهم، ليرى في مرآة وجهها صورته القديمة والحديثة فيعلم حين يقارن بينهما أن فضل الله عليه كان عظيمًا.

وتعجبني كثيراً قصة خالد بن برمك جدّ البرامكة، وكان رجلًا أعجميًّا من قرية من قرى فارس اسمها "بوشتج" وفد إلى بغداد وحظي عند الخليفة فولّاه الوزارة يوم العهد إليهم بذلك المنصب العظيم، وقف الناس له صفوفًا على جانبي الطريق، وأطلّ عليه النساء من نوافذ الدور والقصور، وهو مطرق واجم، فقال له أحد اصدقائه وكان يسير بجانبه: ألا ترى هؤلاء النساء الجميلات المشرفات عليك من نوافذ قصورهن؟ قال: نعم، أراهن، ولكنني كنت أفضل أن أرى بدلًا منهن عجائز "بوشنج".

أي أنه كان يتمنى أن العيون التي رأته بالأمس وهو رضيع، تراه اليوم وهو رفيع.

الأجواء:

ما زالت منذ حدثت تلك الحادثة الكبرى التي رجف لها قلب مصر، وسالت لها دموع الفضيلة حزنًا وآسى، وتحدّث المتحدثون عن أولئك الفتيات الساقطات اللواتي يعشن في تلك السجون العميقة التي يسمونها بيوتًا عيش البؤس والفاقة، أعجب لهن ولأمرهن، وأقول في نفسي ليت شعري، لم يرضين لأنفسهن هذه الحياة الشقية النكدة، ولا يهربن، ويطلبن لأنفسهن الحياة في جو حر مطلق، والأجواء الحرة المطلقة كثيرة، وأسباب العيش فيها متنوعة، وما على وجه الأرض جو أسوأ من جوهن الذي يعشن فيه فيخفن أن يصرن إليه، ولم أصدق ما يقوله بعض الناس في تأويل ذلك من أنّ ذلك

الرجل الجبار قد ضرب حولهن نطاقًا من بأسه وقوته فلا سبيل لهن إلى اختراقه، ولم أزل في حيرتي هذه حتى قرأت بالأمس قصة وقفت منها على سر هذا الخلق الغريب في النساء، فأنا أروي لك خلاصتها لتقف منها على مثل ما وقفت.

توفيت زوج إحدى الدوقات العظام في فرنسا فحزن عليها حزنًا شديدًا؛ لأنها كانت أحبّ إليه من نفسه التي بين جنبيه، فكان يروح عن نفسه بالاختلاف إلى الأندية الخاصة والعامة حتى ملّها وسئمها، فمرّ بخاطره يومًا من الأيام أن يزور حي "مونماتر" وهو القرارة التي تنصب فيها جميع قاذورات باريس الاجتماعية وفضلاتها، فظلّ سائرًا بمركبته يستطرق من زقاق إلى زقاق مظلم مهجور، سمع من داخله ضوضاء عظيمة تكاد تتصدع لها أركانه، فانحدر إليه وأطل من بابه فوقع نظره على طوائف كثيرة من الصناع والعمال والغوغاء والمتطلبين والمتشردين وأشباه اللصوص والمجرمين، ما بين قائم وقاعد وهاتف وسكير قد بلغ السكر مبلغه منه، وراقص، وأبخرة متصاعدة، ومائدة مستديرة في وسط المكان ترقص عليها فتاة بائسة عارية الثياب إلا قليلًا، وتنثر على الناس من الورق القليل الملون، والناس من حولها طائرون بها فرحًا، يداورونها، ويعابثونها، ويخاطبونها بأقبح ما خاطب به أحد! وهي تبتسم مرة، وتقطب أخرى، فلم يدرِ الرجل أهو في مارستان من مارستانات المجانين، أم في حظيرة من حظائر الوحوش الضارية، ولكنه رأى على كل حال منظرًا غريبًا لم يرَ مثله قط، فأعجبه وسكن إليه، وجلس إلى مائدة منفردة، وألقى نظره على تلك الفتاة الراقصة، فإذا هي رائعة الجمال، إلا إنه جمال مبعثر مذال، فلا يزال ناظرًا إليها لا يقلع حتى فرغت من رقصتها، ونزلت تدور بعينيها علّها تجد من يدعوها إلى لقمة تسد جوعها أو كأس تبل بها غلتها، حتى مرت على مقربة من الدوق فدعاها للجلوس معه ففرحت؛ لأنها لم ترَ قبل اليوم زائرًا مثله في فخامة هيئته، وجلال منظره، وأخذ يتحدث إليها ويسائلها عن نفسها، فعلم أنها تكابد أشدّ ما كابد امرؤ قط في حياته من يؤس وشقاء، وقد سمع في صوتها نغمة تختلف بعض الاختلاف عن تلك النغمة الفاجرة الوقحة التي يسمعها السامعون من أفواه النساء الفاجرات فوقع في نفسه أنّه إن أنقذ تلك الفتاة المسكينة المتألمة من بؤسها وشقائها فقد أحسن إليها وإلى الإنسانية إحسانًا عظيمًا، فسألها؛ ألها بأحد من الناس صلة من زواج أو مخالة؟ فأطرقت برأسها وأجابت؛ أن لا، فعرض عليها رأيه الذي رآه لها، فاستطارت به فرحًا وسرورًا، وما هو إلا ساعة أو أكثر حتى كانت بجانبه في مركبته فسار بها إلى منزله.

وهناك تغير حالها فأصبحت سيدة فخمة يتلألأ وجهها بنور العز والكرامة، وآثار النعمة بادية عليها حتى ظن كثير من الناس أنها من ذوات الشأن في الحياة، وأن الدوق يوشك أن يتزوج منها.

وكان الدوق يعيش وحده في القصر ومعه الخدم، ولا يختلف إليه إلا القليل من أصدقائه القدماء من حين إلى حين؛ لأنه كان منقطعًا لا زوج ولا ولد، ولا قريب ولا نسيب فكانت "مارسيل" ملهاته التي يتلهى بها في وحدته، وأنسه الذي يأنس به في وحشته، وكانت هي الآمرة الناهية في المنزل، وظلّ الأمر بينهما على ذلك شهورًا عدة، وكانا يخرجان مع بعضهما للتنزه دائمًا، إلى أن مرت بهم المركبة يوما على مقربة من حي "مونمارتر" فاقترحت عليه "ماري" أن يمرا بذلك الحي ليلهوا بمناظره الغريبة، ومشاهده العجيبة، فأذعن لرغبتها، وظلّا يخترقان شوارعه وأزقته حتى وجدها فيه ترقص فطلبت أن يأذن لها بدخوله، فلم يرَ في ذلك بأسًا، ودخل معها، فوجداه على هيئته التي تركاه عليها، واتجها إلى بعض الموائد المنفردة فجلسا إليها، فما وقع نظر الناس على "مارسيل" حتى هاجوا هياجًا عظيمًا، وهتفوا لها هتافًا شديدًا، وما زالوا بها يحاولون أن يقنعوها لترقص لهم حتى رقصت، وعندما انتهت، نزلت وودعتهم وانصرفت مع الدوق.

هنا بدأت تشعر بالملل من حياتها في قصر الدوق، وكأنّ القصر سجن والدوق سجانها، وبدأت تتذكر أيامها الخوالي ورقصها في عهدها الماضي، وتحنّ إليها حنين العاشق المفارق، ولم تزل كذلك حتى قررت العودة إلى نفس المكان، فخلعت أثوابها وحلاها وألقتها على بعض المقاعد ولبست أثوابها الأولى التي جاءت بها إلى القصر وتسللت من القصر دون أن يشعر بها أحد، وأخذت سبيلها إلى حي "مونمارتر".

وهكذا قضت على نفسها بنفسها بالشقاء.

تأسف الدوق لفرارها فبكاها كثيرًا، وعادت له وحشته التي كان يعالجها من قبل.

ومرّ على ذلك عام أو بعض عام وبينما هو مقبل على قصره في ليلة من الليالي إذ لمح على عتبة الباب امرأة مسكينة تئن وتتوجع، وتحاول أن تمد يدها إلى حلقة الباب لتطرقه فلا تستطيع، فدنا منها ليتبينها فإذا هي "مارسيل" أو هي شيح متهافت باقٍ منها، فلمّا أحسّت به مدت ذراعيها إليه وقالت له بصوت خافت ضعيف: اغفر لي ذنبي يا مولاي، فدهش لمنظرها ورقّ لحالتها فأمر الخدم بحملها إلى القصر فحملوها إلى غرفتها التي كانت تنام فيها، وهي في حالة من البؤس والشقاء تذيب

الأكباد، وتستذرف الدموع، ثمّ جلس إليها يسائلها عن شأنها، فقالت إنها مريضة منذ شهور عدة، وأنها قد عجزت عن الدواء، فما زال المرض يأخذ منها حتى وصلت إلى ما وصلت إليه، فلم تجد بدًّا من أن تأتيَ إليه لتستغفره من ذنبها، وتسأله أن يعينها على أمرها؛ لأنها لا تعرف غيره، فرثى لحالها وأمر باستدعاء الطبيب لينظر في أمرها، فلم يستطع الطبيب أن يصنع شيئًا؛ لأنه جاء بعد الأوان، وما أصبح الصباح حتى صعدت روحها لخالقها، وخلفت للدوق حسرة فوق حسرته الأولى بوفاة زوجته، فلم ينتفع بحياته طويلًا بعد ذلك!

لكل جو من الأجواء رائحة خاصة به يألفها أصحابه ويستنيمون إليها، فحولوا أيّها الرجال بين نسائكم وبين تلك الأجواء الخبيثة، ولا تقولوا إنهن سيجزعن منها ويهجرنها حين يستنشقن رائحتها، فالرائحة الخبيثة لا يتألم منها إلا البعيد عنها.

كتاب في التقاضي:

أنا إن سألتك حاجتي، أعزّك الله، وبسطت إليك يد رجائي، فقد طرقت باب المكارم، واستمطرت غيث المراحم، ورجوت واحد الدهر همة وحزمًا، ونادرة الوجود كرمًا وفضلًا، فإن أنجزتها فليست أولى الهمم، ولا واحدة النعم، فلكم سبقت إلى منك أيادٍ تخرس دونها ألسنة الشكر، وتضيق بها جرائد الحصر ولقد مثلت، أيّدك الله، بين أن استشفع إليك بذوي الجاه عندك، والزلفى لديك وبين أن أكِل ذلك إلى كرمك وفضلك، وما طبعت عليه نفسك الشريفة من خلال الخير، وسجايا البر، فرأيت الثانية بك أحرى، وبفضلك أجدر، والسلام.

كتاب مقاطعة:

أتلقّى كتابك وقد أبللت من مرض حبّك، وصحوت من رقدة طال على الغيب فيها حتى خفت أن تتصل برقدة الموت، فلم ترعني روائعك ولا أجدي عندي اعتذارك، ولا أخذ حديثك من قلبي مأخذه من قبل، ولم أرَ بين سطورك ذلك النور الذي كان يملأ عيني روعة وقلبي هيبة، فالحمد لله الذي أدالني منك وأعتقني من رقك وكشف لي مكنونك، فجفت الدموع التي طالما أذلتها بين يديك وقرّت العين التي كنت أساهر بها الكواكب شوقًا إليك، ولم يبقَ في خاطري من ذكرك إلا كما بقي في قلوب الناس من الوفاء.

كتاب تهكّم:

علمت أنّ فقيرًا طرق بابك بالأمس، وما زال يكيد لك، ويتغلغل في مواطن الضعف من قلبك حتى خدعك من نفسك، واقتطف زهرة من روضه وذهب باسمًا، وأنت تقرع سنّ نادم فما هذا الخلق الغريب الذي تخلقه، فالفقراء في الدنيا كثير قد ضاقت بهم الأرض بما رحبت، وهل بين الدراهم الذي أعطيت، والدراهم الذي أبقيت، إلا حرف واحد؟ وإنّ أخوف ما أخاف عليك أن تكون أتيت من باب الخدعة الشيطانية التي يسمونها الرحمة، فإن كانت هي؛ فالخطب عظيم، والبلاء جسيم حيثما ذهبت وأنّى حللت، لا تقع عين إلا على يد شلاء، ورجل بتراء،...وجسم أعرى من أديم، فإن لم تفارق الرحمة قلبك، فارق المال جيبك، فطفت مع الطائفين وتسوّلت مع المتسولين، ثمّ لا تجد لك راحمًا ولامعينًا.

فارحم نفسك قبل أن ترحم سواك، ولا تنسَ أن تردد في صباحك ومسائك، وفي مستأنف خطواتك، وفي أعقاب صلواتك، كلمة ابن الزيات ((الرحمة خور في الطبيعة)).

وعلمت أنك دعيت إلى وليمة فلان، فطرت إليها، طيّب النفس كأنك لا تعلم أنها لذة الساعة، وشبع اليوم، تأكله اليوم ليأكلك غدًا، فمن لك من النجاة من مضيفك إذا جاءك يومًا يتقاضاك دينه وقد حفّت به كوكبة من خلّانه وصحبه، فطار لمرآك لبك، وخيّرك بين لحم شاتك ولحمك، فالفقر إن منحت، والعار إن منعت، ولقد كان لك في نزوائك واعتزالك، واكتفائك بقرصك وزيتك، وخلوتك بصندوقك في كسر بيتك، حيث لا تزور ولا تزاور؛ فإياك والعود إلى مثلها يطل غمك، ويسود عيشك، والسلام.

كتاب يأس:

كتاب إلى سيدي ومولاي، والنفس بين جنة من الأمل تغن أشجارها، وترنّ أطيارها، وتعتنق غدرانها، وهاجرة من اليأس تتلظى نارها، ويعتلج أوارها، وتحول بين الجفون اغتماضها، والجنوب ومضاجعها، والقلب يهبط به الخوف فيتمشى بين الأضالع مشية الطائر الحذر، وحالي كحال هذه الدنيا تضطرب ما بين فرح وهم، وسرور وحزن، ومدّ وجزر، أذكر الله ورحمته وإحسانه، فيشرق لي من خلال ذكراه وجه الحياة الناضر وبشرها الضاحك، وجمالها الساطع، ثم أذكر الدهر وصروفه،

والعيش وحتوفه، والأيام وما أعدت في طياتها لبنيها عن عثرات في الخطوات، ونكبات في الغدوات والروحيات، وما أخذته من العهد على نفسها من الوقوف بين النفوس وآمالها، فألمس صدري بيدي لأعلم أين مكان قلبي من أضالعي، ثمّ أنثني على كبدي من خشية أن تصدعا، فليت الله يرسل غيوث رحمته وإحسانه أبلّ بها غلتي، وأطفي بها لوعتي، أو ليت القدر ينشب أظافره بين سحري ونحري نشوبًا لا يستقي بعده عرقًا نابضًا ولا نفسًا مبرددًا، فيستخلصني من موقف أنا فيه كالمريض المشرف، لا هو حيّ فيرجى، ولا ميت فيبكى.

يقولون ((ما أضيق العيش لولا فسحة الأمل)) وأقول ما عذب الله عباده بنازلة القضاء، وصاعقة العذاب، وطاغية الطوفان، والنقص في الأموال والأنفس والثمرات، بمثل ما عذبهم بالأمل الباطل!

قد أصبحت أحسد الوحوش الهائمة على وجوهها، أن أراها سارية سارحة، تتناول رزقها رغدًا من بوارق المصادفات، ومفاجآت المقادير، لا يعينها الأسف على فائت من العيش ولا يقلقها الطمع في آت من الرزق، لا تبالي أسقطت على الموت أم سقط الموت عليها؟

فمن لي بهذا العيش من عيش مثلي منه كمثل رجل زلّت به قدمه فسقط في بئر بعيد غورها، فما زال يتخبط ويضطرب، حتى عثر بمرقاة علقت رجله بها، ثمّ تلمس أخرى غيرها فما وجدها، حتى بلغ منه الجهد أو كاد، فلم يصبر على الثانية صبره على الأولى، فسقط، فخاف الغرق فعاد إلى نفسه، فعاد إلى سقوطه، فلا هو بالغ رأس البئر فينجو من الموت، ولا هو بالغ قرارة الماء فينجو من الشقاء.

ارم بطرفك حيث شئت من الناس هل تبصر إلا صريعًا صرعه أمله، أو قتيلًا قتله رجاؤه، أو صديقًا يشكو غدر صديق كان يعدَه لنوائب الدهر، أو باكيًا يبكي كان يرجوه للمستقبل ففجعته الأيام فيه، أو ساهرًا أو متململًا؟

هذه حالتي، وذلك همي، وهذا ما وسوس لي أن أعتزل الناس جميعًا وأفارق كل رفقتي، ويراعي ومحبرتي؛ علّني أجد في البعد عن مثارات الأماني، ومباعث الآمال، راحة اليأس، فاليأس خير دواء لأمراض الرجاء.

فها أنا ذا قابع في بيتي، ولا مؤنس لي إلى وحشتي، ولا أنيس إلا وحدتي أتخيل البيت قبرًا، والثوب كفنًا؛ لأعالج نفسي على نسيان الحياة، وأمانيها الباطلة، ومطامعها الكاذبة، حتى يبلغ الكتاب أجله، وهذا آخر عهدي بك وبغيرك، والسلام.

الجرائد:

لا أرى الصحف في مصر إلا ناديًا من أندية القمار، ولا هؤلاء الكتاب إلا جماعة من اللاعبين، قد وضعوا رؤوس المصريين على مائدة اللعب كما توضع الأكر على طاولة "البلياردو" ثم داروا حولها يلعبون بها ويتدافعونها، فيكسبها في الصباح "زيد" ويخسرها في المساء "عمرو" وربما لا يأتي آخر الليل حتى يدور النحس دورته عليهم جميعًا، فيخسرها الكل ويكسبها النادي.

عبد الحميد:

حضرت منذ أشهر تمثيل رواية في مسرح عربي اختتمها جوق التمثيل بنشيد للسلطان عبد الحميد يصفه فيه ناظمه بالعدل والرحمة والإحسان، ويدعو له بسلامة عرشه وطول البقاء، فما سمع الناس باسمه حتى هتفوا له وصفّقوا طويلًا، وحضرت ليلة أمس منظرًا من مناظر الصور المتحركة فرأيتهم يمثلون ذلك السلطان بعينه رجلًا ظالمًا، ورأيتهم عمدوا إلى صورته فجعلوها مواطئ أقدامهم، ومضارب سيوفهم، فما رأى الناس هذا المنظر حتى راق في أعينهم، وابتهجوا لمرآه، فصفقوا له تصفيقا شديدًا بتلك الأكف التي رأيتهم يصفقون بها في مسرح التمثيل.

أنا لا أعلم إن كان عبد الحميد ظالمًا أو عادلًا، شريفًا أو وضيعًا، وإنما أعلم أنني سأموت قبل أن أقف على حقيقة تاريخية في أمره ما دام الناس عامتهم وخاصتهم، كتابهم وشعراءهم، علماءهم وجهلاءهم، هم الناس الذين يقول فيهم القائل:

والناس من يلق خيرًا قائلون له ما يشتهي، ولأم المخطئ الهبل

الشهرة:

لا يمكن أن تكون الشهرة بحالٍ من الأحوال ميزانًا للفضل في مصر، خصوصًا في عالم الأدب، ولن يجري الفضل والذكر في ميدان واحد إلا إذا سلم السابق من كيد العابث، وخدعة الأريب، وأنّى لنا ذلك وفي شعراء مصر من يغتصب الشهرة

اغتصابًا، وينزع إليها بوسائل لو عرفها الناس لأنزلوه منزلته، وألبسوه حلته بينما ترى الآخر قد قنع من أدبه بلذة نفسه، فلا يترنّم بقصائده في المنتديات والمجامع ولا يبتاع من الصحف الأسماء، ولا يستخدم الكتاب لإطرائه، ولا يتم ما يجده من النقص في أدبه بالغض من أدب غيره فترى الأول دويًا كدوي الرعد، وترى الآخر مطرحًا مجفوًا لا يؤبه له، والدرُّ في الصدف أغلى قيمة وأرفع قدرًا من جميع ما على الأرض، وإن كان ملء العيون حسنًا وبهاء ورونقًا وماءً.

فكاهة:

حدّثني بعض الأصدقاء أنه دخل في أيام الحرب الروسية اليابانية حانوت حلاق معروف بالثرثرة أكثر من أفراد طائفته، ليحلق له رأسه وكان عنده جماعة من زائريه، فأجلسه على كرسي أمام المرآة، وأمسك بالموس وأنشأ يحلق له رأسه حلقًا غريبًا لا عهد له بمثله من قبل، ويترك أشكال هندسية في رأسه، وظنّ الرجل أنّ الحلاق قد أصابه مسّ من الجنون، فارتعد وخاف أن يمتد به جنونه إلى ما لا تُحمد عقباه، فلم يسأله عن السبب.

فما انتهى الحلاق من أشكاله الهندسية، ورسومه الجغرافية حتى التفت إلى جلسائه، وقال لهم كأنه يتمم حديثًا سابقًا بينه وبينهم: لأجل فضّ النزاع بيننا؛ ها قد رسمت لكم خريطة الحرب الروسية اليابانية في رأس "الزبون" وبدأ يشرح لهم الحرب وكيف تلاقى الأسطولان الروسي والياباني، وهنا أخذ يتكلم بحدّة وحماسة عن شجاعة اليابان، ثمّ أردف كلامه بقوله ((وفي هذه البقعة ضرب اليابانيون الروس الضربة القاضية)) وضرب بجمع يده رأس الزبون فقام صارخًا يولول ويهرول مكشوف الرأس يلعن السياسة والسياسيون والروس واليابانيين، والناس أجمعين.

لا أعلم إن كان المحدّث هازلًا أو مجدًّا، وإنما أعلم أنه قد أجاد التمثيل!

الأقسام:

لا أعرف فرقًا بين حنث الحانث في يمينه، وكذب الكاذب في حديثه، كلاهما ضعيف المِنّة، وكلاهما ساقط الهمة، وكما لا يستطيع الكاذب أن يكون صادقًا، كذلك لا يستطيع أن يكون بارًّا، فإن من يستصغر جرم الكذب لا يستكبر من بعده جرمًا.

الدين:

أيها الناشئ، إنّ من الناس قد ضعفت نفوسهم عن احتمال ثقل الدين، وسلطان أمره ونهيه فخرجوا عليه، ونبذوا طاعته، ثم علموا أنّ الناس سيأخذون عليهم ضعفهم وعجزهم، فلم يجدوا معذرة يعتذرون بها إليهم غير دعوى إنكار الدين وجحوده استثقالًا وتبرّمًا، لا تقلّدًا وتمذهبًا، وما هم بمنكريه!

فاعلم أنّ الله سيبتليك بهم، وأنهم سيزينون لك إنكار ما يزعمون أنهم ينكرونه، وسيخيّلون إليك أنك لن تستطيع أن تبلغ ما تريد من هذه المدنية الحاضرة، وأن تنال الحظوة الباسقة في نفوس أصحابها؛ إلا إذا تنكرت لدينك.

فاحرص الحرص كله على ألا يعلق بنفسك عالق من هذه الخيالات الباطلة، واعلم أنك إلى نفسك أحوج منك إلى الناس، وأنّ الناس لا يغنون عنك من الله شيئًا، إن أنت آثرت مرضاتهم على مرضاته، وأنّ هذه الحياة حافلة بصنوف الشقاء، ولا يعين عليها إلا عقيدة راسخة صافية يلوذ بها الحائر كلما عثرت خطواته، ويستروح من أعطافها رائحة الجنة كلما ضاق ذرعه باحتمال جحيم العذاب.

الحقيقة:

قال لي بعض الناس: إنّ قومًا يغرقون في مدحك؛ فهلّا زجرتهم، فقلت له: إنّ آخرين قد أغرقوا في ذمي فلم أصنع شيئًا، فدع الأكاذيب يقرع بعضها بعضًا، فربما استطارت من تلك المعركة شرارة تضيء للناس مكان جوهرة الحقيقة المذالة تحت الأقدام فيلتقطونها.

الانتقاد:

بين نقد المؤلفات هنا ونقدها هناك فرقان: أحدهما يتعلق بالناقد، والآخر يتعلق بأثر النقد في الأذهان، أمّا الأول فهو أنّ الناقد هناك ينتقد الكتاب من حيث ذاته، فلو لم يكن للكتاب صاحب معروف لا ينتقده، وهنا ينتقده باعتبار شخص مؤلفه، أي أنه لا ينتقد الكتاب بل صاحب الكتاب في كتابه، وأمّا الثاني وهو أثر طبيعي للأول فهو أنّ للانتقاد هناك أثرًا طاهرًا في الكتاب من رواجه وكساده وشهرته وخموله، فكما

يقول المنتقد يقول للناس بقوله، وهنا يمر الانتقاد بالأذهان مرًّا فلا يبقى من آثاره فيها إلا أثر واحد، وهو أنّ الكتاب جليل القدر، سني القيمة، ولولا ذلك ما احتفل بأمره محتفل، لذلك رأيت كثيرًا من عقلاء الأدباء لا يرضون عن أنفسهم إلا إذا انتقد الناقدون مؤلفاتهم، أمّا الذين يغضبهم الانتقاد ويجرح صورهم فهم الذين لا يعرفون من هذا ولا ذاك شيئًا.

الحزم:

إنّ الدرهم الذي تمنحه من لا يستحقه، قد خرج من يدك فلا سبيل بك إلى وجدانه في اليوم الذي ترى فيه أمامك من يستحقه، وإن الدينار الذي تعطيه الشارب ليشتري به كاسًا يقتل بها نفسه قد استحال عليك أن تعطيه الفقير العائل ليشتري به رغيفًا يسدّ به جوعة أولاده.

الألم:

إنّ كثيرًا من الآلام التي نعالجها لذائذ ومسرات يدركها من عرف أنّ الإنسان غافل بطبيعته عما يهدده من مصائب هذه الحياة وأرزائها، وأنّ الآلام الضعيفة التي تناله من العثرات الصغيرة هي نذر تأتيه من عالم الغيب لتحذره من الآلام الشديدة التي تناله من السقطات الكبيرة.

الغفران:

ليس الحقد واحتمال الضغينة غريزة من الغرائز اللازمة للإنسان؛ فإنّ الرجل قد يصفح عن سيئات الأطفال لأنهم لا يملكون الخيار لأنفسهم، ويذكر لأصحاب السيئات من الموتى حسانتهم لأنّ الزمن الذي ذهب بهم ذهب بخيرهم وشرهم، فلمَ لا نغتفر ذنوب أولئك الذين ما ذنبوا إلا بعد معركة مستمرة قامت بين عقولهم وقلوبهم ثمّ سقطوا على أثرها صرعى لا يملكون لأنفسهم ضرًّا ولا نفعًا؟

الدعوى:

إن أردت أن تكون في الأمة الجاهلة كل شيء تنل بقولك في الزمن القصير، ما لا ينال غيرك بفعله في الزمن الطويل، فإنّ الكاذب لا يزال يكذب حتى يصدّقه الناس، ويصدق نفسه.

الدين والوطن:

من لا خير في دينه لا خير له في وطنه، لأنه إن كان ينقضه عهد الوطنية غادرًا فاجرًا، فهو ينقضه عهد الله وميثاقه أغدر وأفجر، وإنّ الفضيلة للإنسان أفضل الأوطان، فمن لم يحرص عليها فأحرى به ألا يحرص على وطن السقوف والجدران.

الحلم:

إذا تورد متورد بكلمة سوء فلا تبتئس بها فإنك في موقفك هذا بين اثنتين، إمّا أن يكون الرجل صادقًا فيما يقول أو كاذبًا، فإن كانت الأولى؛ فاحمد الله تعالى على أن قيض لك من أرشدك إلى عيبك، وكشف لك عن خبيئة نفسك، وإن كانت الأخرى؛ فاربأ بنفسك أن تكون من الجاهلين الذين يتوهمون أنّ في استطاعة الأكاذيب أن تبقى زمنًا طويلًا.

الأدب:

لا تكافئ السفيه على سفهه بمثله، فإنك إن فعلت قضيت له على نفسك، وأصبحت شريكه في الخلة التي تزعم أنك تنقمها منه.

الأخلاق:

مثل المتعلم غير المتأدب كمثل شجرة عارية لا تورق ولا تثمر قد انتصبت للناس في ملتقى الطرق تعترض الرائح، وتصد سبيل الغادي، فلا الناس بظلها يستظلون، ولا هم من شرّها ناجون.

الاعتدال:

بين الجبن والتهور منزلة هي: الشجاعة والإقدام، وبين البخل والإسراف منزلة هي: الكرم، وبين العفو والانتقام منزلة هي العقوبة، وبين العجز والجهل منزلة هي: الحكمة، فليكن أفضل ما تأخذ به نفسك بالتريث والتثبت عند النظر في الفرق بين مشتبه الفضائل والرذائل، واعلم أنك لا تزال كريمًا حتى تنفق مالك في غير موضعه؛ فإذا أنت مسرف، وإنك لا تزال حليمًا حتى تغضب للباطل فإذا أنت جهول، وإنّ كل الناس يعرفون الفضائل والرذائل ويفهمون معانيها، أمّا إدراك الفرق بين غوامضها ومتشبهاتها فتلك مرتبة العقلاء الأذكياء.

البر:

ربما كان لك من أبويك أو من ذوي رحمك ممن تولوا شأنك في مفتتح عمرك من لم تساعده شؤون دهره أو عصور نشأته على أن ينال حظًّا من العلم والمعرفة مثل ما نلت، فإياك أن يدعوك ذلك إلى تسفيهه أو السخرية به أو الإدلال بنفسك عليه، فإنك إن فعلت خسرت من الأدب أضعاف ما كسبت من العلم، فقد خسرت فوق خسران أدبك ما كان خليقًا بك أن تتلقاه بين يديه من علوم التجارب التي ليست علوم الدراسة بالإضافة إليها إلا كالنقطة من البحر والذرة من الفقر.

الشقاء:

السبب في شقاء الإنسان أنّه دائمًا يزهد في سعادة يومه ويلهو عنها بما يتطلع إليه من سعادة غده، فإذا جاء غده اعتقد أنّ أمسه كان خيرًا من يومه، فهو لا ينفك شقيًا في حاضره وماضيه.

الفتاة والبيت:

حضرة صديقي الكاتب الفاضل أنطون أفندي الجميل، أهديت إليّ كتابك (الفتاة والبيت) فأهديته إلى ابنتي؛ لأنه مكتوب لها ولأترابها من الفتيات الناشئات، وربما كانت وكن أقدر مني ومن الرجال جميعًا على فهم مزيّته، وتقدير منزلته، فلما قرأته عادت إليّ تقول إنني لم أهدِ إليها في حياتها خيرًا من هذا الكتاب.

سامحها الله، فقد كان فيما أهديت لها كتاب (النظرات) فقد فضلته على كتاب أبيها، ولكن مالها وللنظرات، وأمثالها من كتب الكليات العامة والخيالات السائرة، فهي فتاة المستقبل يهمها أن تعرف أسباب الحياة المنظمة التي لا تستطيع فتاة في هذا العصر أن تعيش بدونها والتي عجز أبواها عن أن يرشداها إليها؛ لأنهما بقية من بقايا العصر الماضي عصر المصادفات والاتفاقات، ولا يزال عصرهما لاصقًا بهما حتى اليوم، ويعينها أن تعلم كيف تنسج من أخلاقها وآدابها ثوبًا يغنيها جماله عن الجمال، وتعيش من عقلها وحكمتها في ثروة لها مقام ثروة المال، وكيف تدبر القليل من الرزق وتنتفع به، إن قدّر لها أن تعيش عيش المقلين، وتحسن التصرف في الكثير منه وتبقي عليه إن قدّر لها حظ المكثرين، وكيف تكون شمسًا مشرقة في أفق بيتها تضيء نفوس جميع ساكنيه، من زوجها إلى خادمتها، فتسعد بهم ويسعدون بها، وكيف تتولى أمر نفسها بيدها، وتستنبط من ثقب الإبرة رزقها إذا احتاجت.

كتابك هو الجواب عن جميع ما تطلبه، و تسائل نفسها عنه، فلا غرور إن أعجبها وأطربها، ولا عجب إن فضّلته على كل كتاب حتى كتاب أبيها.

فما أحرزت الفتاة في بيتها خيرًا من كتاب (الفتاة والبيت).

البعث:

(قصة خيالية) الغرض منها تمثيل أبي العلاء المعرّي في أخلاقه وآرائه لم يكتب منها غير هذه الأيام الثلاثة.

اليوم الأول:

نبا بي مضجعي ليلة لهمَّ نزل بي، والهم رسول من رسل الشرّ ينزل بأهداب العيون فلا يزال يسعه سعيه حتى يوقظ الفتية بين أشياعها فظللت ساهرًا حتى مللت،

فلم يقضِ من الليل إلا أقله، فإذا طارقًا يدق الباب دقًا ضعيفًا، فقلت من الطارق؟ قال :غريب حائر، ضلّ به سبيله في هذه الرقعة السوداء وأعوزه المأوى يطلب كريمًا يعتمد عليه، ومضجعًا يأوي إليه، وقد أعدّ لمن يسدي إليه تلك النعمة، ذخيرة صالحة من شكر لا يبلي ودعاء لا يخيب، فأعجبت بفصيح لسانه، وقلت في نفسي: ما لهذا الرجل بدّ من شأنه وفتحت الباب فإذا شيخ قصير، نحيل، زري الهيئة، قد جاوز الثمانين من العمر، ذو لحية بيضاء، قد انحنى ظهره، ومعه عصا يعتمد عليها، فلما شعر بمكاني رفع رأسه، ورماني بنظرة خلت أنها نفذت إلى موضع الأسرار من قلبي بما بين رأسي وأخمص قدمي، فرأيت وجهًا أسمر اللون قد انتثرت في أكنافه حفر الجدري، وأسارير تدل على حوادث الدهر وأنوار الصلاح، فمشيت إليه مشية الهائب الوجل وقلت: على الرحب والسعة ياسيدي، لقد حللت بمنزل أنت صاحبه وولي الأمر فيه، ثمّ قدمت إليه يدي فمشى معي يتوكأ ويتحامل، حتى وصلنا إلى غرفة الأضياف، فأعاد النظر إليّ وقال: اذهب لشأنك؛ فأنا في حاجة إلى الإنفراد بنفسي، وفي الصباح سألت الخادم عن الضيف فعلمت أنه أخذ حظه من المطعم والمشرب والمضجع والمستحم وأنه لا يزال في مصلّاه، فهبطت إليه في خلوته أهيب ما أكون له فرأيته جالسًا في مصلّاه، ويكرر دعاءه.

ثم أطرق بعد ذلك إطراقًا طويلًا فجعلت اختلس الخُطا إليه حتى وصلت إليه، فرفع رأسه إليّ ذاهلًا، وقال: أنت هنا؟ قلت: نعم، قال: في أيّ سنة نحن من تاريخ الهجرة؟ فعجبت لسؤاله وقلت: في السنة التاسعة والعشرين بعد الثلاثمائة والألف، قال: ما اسم هذا المصر الذي تعمرونه؟ قلت: القاهرة المعزية، قال: أفي هذه الأمة كثير مثلك؟ قلت: لم أفهم ما تريد ياسيدي، قال: لقد طرقت الأبواب التي تليك فلم أجد من ورائها من يستقلبني، إمّا ضعيفًا يوصد بابه في وجهي أو ضنيًّا يرى بؤسي وشكاتي وينصرف عني، أو أعجميًّا لا يفهم ما أقول، ولا أفهم ما يقول، قلت: ما في هذه الحارة أعجميّ، قال: إنهم خاطبوني بلحن لا اعرفه وإن شئت أعدته عليك كما سمعته، ثمّ أخذ يسرد عليّ الكلمات العاميّة التي سمعها من الناس في طريقه إليّ سردًا متواصلًا كما تسرد الببغاء كلماتها، فقلت: إنك قد أعدت يا سيدي بذكائك هذا عهد أبي العلاء المعرّي؛ فإنهم يتحدثون عنه أنه كان إذا سمع أعجميًّا يتكلم حفظ كلامه بدون أن يفهم معناه، فما سمع كلمتي هذه حتى اضطرب جسمه وانكفأ لونه، وزحف إليّ ثم قال لي: من هو هذا المعرّي الذي حدّثوك عنه، قلت: رجل من علماء الأمة العربية وشعرائها، عاش في القرن الرابع والخامس من الهجرة، تقرأ سيرته في كتب التاريخ والأدب، وتعجب بفهمه وعلمه وذكائه كل الإعجاب، قال: وما ظنكم به؟ قلت: إنّ

الناس في أمره مختلفون، ومن يرفضه أكثر ممن يتشيع له، قال: ومن أيهم أنت؟ قلت: ممن يتشيّع له، فقد قرأت كتبه قراءة مستثبت مستبصر فما شككت في مذهبه ودينه، قال: أكنت تؤثر أن تكون في عصره أو أن يكون في عصرك حتى تراه؟ قلت: ما أعدل بهذه الأمنية غيرها، قال: قد بلغك الله طلبتك، قلت: لم أفهم يا سيدي شيئًا مما تقول! قال: أكاتم أنت على سرّي؟ قلت: نعم، قال: أتقسم؟ قلت: إنّ للوفاء عندي حرمة مثل حرمة القسم، ولو كنت متمهمًا نفسي لأقسمت، قال: الآن عرفتك، أنا أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخي المعري، فما قرعتْ هذه الكلمة مسمعي حتى أسقط في يدي، وعلمت أني قد هلكت، وكان أول ما كان مني أن التفت ناحية لأرى هل أجد السبيل إلى الهرب إن عرض لي من هذا الجنون عارض سوء، وكأنه ألمّ بما في نفسي فقال: لا ألومك على ما ظننت، فقد قدرت قبل أن ألقيَ إليك كلمتي هذه إنها بالغة منك ما بلغت فهل تؤمن بالله؟ قلت: نعم، قال: وتؤمن بالبعث، قلت: نعم، قال: وما يريبك من رجل أماته الله ثمّ بعثه بعد موته؟ قلت: ذلك يوم يبعثون، قال: هبها قصة إبراهيم عليه السلام مع أربعة من الطير، ثم قصّ عليه قصته وكيف حوسب ثم عُذب، وكيف خرج بعد ذلك من هذا كله.

فما أتمّ قصته حتى ابتدرت يديه لثمًا وتقبيلًا وعلمت أنّي أحرزت في بيتي كنزًا لا أعدل به كنوز الأرض ظاهرها وباطنها، وشعرت بالسرور.

ثمّ ما زلنا نتحدث الليل كله تقريبًا، فوضعت يدي في يده وعاهدته على كتمان سره، ثمّ ودعته وتركته في خلوته على أن نلتقيَ غدًا.

اليوم الثاني:

ما كنت أجهل قبل اليوم رأي الشيخ في الطعام وما يحب منه وما يكره، ولكنني ظننت أنه بطبيعة غير طبيعته، ورأى غير رأيه؛ فقدمت إليه في طعام العشاء دجاجات كنت أعددتهن للضيفين من قبل، فلما أخذ بصره المائدة صار ينظر إليها مرة وإليّ أخرى، ثمّ قال: ما اسم هذا الطعام الذي تقدمه إليّ؟ قلت: إنّهن دجاجات، ذبحتهن إكرامًا لك، فوجم الشيخ ثمّ أطرق إطراقًا طويلًا، سمعته يهينم فيه بكلمات يرثي فيها الدجاجات، وينكر عليّ ذبحها، ويخبرني أنه ترك أكل لحم الحيوان؛ لأنه إنما خلق للشفاه الغليظة، والأنياب العريضة، والأظافر الحادة ولا يأكلون إلا إذا عالجوها بالطبخ والصف والتقديد والشي والقلي، ومزجوها بالخضر والتوابل والأبازير.

وأعجب ما كنت أعجب له من أمرهم أنهم كانوا ينكرون عليّ رأي في ترك ذلك الطعام ويمنعون في مسألتي عنه وحجاجي فيه وحملي عليه، وأنا ما تركته نقمة

على الشريعة أو تبرّمًا بها أو تمرّدًا عليها، ولكني كنت امرءًا جزوعًا يزعجني منظر اللحم على مائدتي؛ لأنه يذكرني بارتياعها وولهها بين حبل الذابح وسكينه، وكنت فقيرًا لا أملك في كل عام من الرزق إلا نيفًا وعشرين دينارًا، لا يتسع مثلها لمثل ما يتسع له عيش الناعمين المترفين وكنت لا أجد السبيل إلى غيرها إلا من طريق الكدية والتكفف؛ أي بقبول صلات الأمراء وصدقات المحسنين.

ثمّ صار حديثًا طويلًا بيني وبينه عن الرحمة بالحيوان وعن زهد الصالحين في الطعام، إلى أن سكت بعد ذلك سكوت المجهد المتعب، وكان الظلام قد أظلّنا بجناحيه، وقد بدأ عليه النعاس، فانسللت من بين يديه وتركته في مضجعه على أن ألقاه غدًا.

اليوم الثالث:

أصبحت في اليوم الثالث فإذا الشيخ قد فارق خلوته إلى حديقة المنزل فافترش ترابها، وتوسّد أعشابها وأنشأ يرد النظر بين أزهارها وعصافيرها، فعرفت المدخل إلى قلبه والوسيلة إلى سروره فاقترحت عليه البروز إلى ضاحية البلد ليرفّه عن نفسه ما ألمّ بها من الحزن، فخرجنا حتى وصلنا إلى وادٍ أفيح يهتز بصنوف الأشجار، وأفانين الأزهار، وألوان النبات، من هائج وعميم، وبأرض وجميم، وكروم وأعناب.

هنالك وقف الشيخ أمام هذا المشهد المؤثر وقفة الحائر المشدوه، وقد ملكت عليه مشاعره وحيل بينه وبين نفسه فجمد في مكانه كأنه نصب من الأنصاب ووقفت وراءه أعجب لجموده وسكونه حتى فنيت كما فنى في مشهده الذي بين يديه، فلم أرجع إلى نفسي حتى سمعته يقول:

للمليـــــك المذكرات عبيد.	وكذاك المؤنثات إماء
فالهلال المنيف والبدر والفر	قد والصبح والثرى والماء
والثريا والشمس والنار	والأرض والضحى والسماء
هذه كلها لربك ما عا	بك في قول ذلك الحكماء

ثم التفت إليّ وقال: كلّ الناس يطلبون الحقيقة وكلهم عاجزون عنها؛ لأنهم يطلبونها من صحائف التاريخ، والمؤرخون يصانعون ويداهنون، والحقيقة موجودة ولكنهم لا يعرفونها؛ لأنهم لا يعرفون الطريق إليها، قلت: وأين نجدها، قال: في هذه الأودية الفيحاء، تحت تلك القبة الزرقاء، بين الظل والماء.

ثم تنقلنا في هذا الوادي من مكان إلى مكان، وقابلنا فلّاحًا كان بينه وبين ضيفي حديثًا طويلًا.

وكان من ضمن الحديث سؤال ضيفي له عن سيده وفي كل مرة يذكر فيها الرجل الذي يشتغل عنده وكيف هو قانعًا بما هو فيه من العيش.

وهنا رأيت أبا العلاء كأنما يحاول أن يكاتمني دمعة تترجح في مقلتيه فأشرت إليه بالقيام فقمنا ومشينا صامتين لا ينطق ولا أنطق حتى بلغنا المنزل، وقد ستر الظلام فقلت أرجو يا مولاي أن أكون قد بلغت ما أردت لك في مخرجك هذا من السرور والغبطة، قال: ما نغصَ عليّ يومي هذا إلا منظر ذلك الفلاح على صغر سنّه وسقوط همته وذلة جانبه. وما أحسب إلا أنّ الظلم قد ألحّ على نفسه حتى قتلها وسلبها حبها ووجدانها فأصبح لا يعرف لنفسه حياة ذاتية مستقلة عن حياة ذلك الإنسان الذي يسميه سيده فهو لا يفرح إلا لفرحة ولا يغتبط إلا باغتباطه، ويرضيه منه كل شيء حتى ومجازاته إياه على إخلاصه إليه وتعبده له، بضربه وتقتير الرزق عليه، وكذلك يفعل الظلم في نفوس المستضعفين.

ثم تركني وانحدر إلى مخدعه وهو يهتف بهذه الكلمات:

يحسـن مرأي لبنـــي آدم وكلهم في الذوق لا يعذب

أفضل من أفضلهم صخرة لا تظلم الناس ولا تكذب.

الأربعون:

الآن وصلت إلى قمة هرم الحياة، والآن بدأت أنحدر في جانبه الآخر، ولا أعلم هل استطيع أن أهبط بهدوء وسكون حتى اصل إلى السفح بسلام، أو أعثر في طريقي عبرة تهوي بي إلى المصرع الأخير هويًا.

سلام عليك أيها الماضي الجميل، لقد كنت ميدانًا فسيحًا للآمال والأحلام، وكنا نطير في أجوائك البديعة الطلقة غادين رائحين طيران الحمائم البيضاء في آفاق السماء، لا نشكو ولا نتألم، ولنسأم، بل نعتقد أن في العالم همومًا وآلامًا، وكان كل شيء في نظرنا جميلًا حتى الحاجة والفاقة.

وكان كل ما نعالج فيك من آلام وهموم، أن يكون لنا مأربان من مآرب الحياة، فنظفر بأحدهما ويفوتنا الآخر أو غرضان من أغراضها، فنصل إلى القريب، ونبيت دون البعيد.

أمّا اليوم وقد بدأت أنحدر من قمة الحياة إلى جانبها الآخر فقد احتجب عني كل شيء ولم يبقَ بين يدي مما أفكر فيه إلا أن أعد عدّتي لتلك الساعة الرهيبة التي انحدر فيها إلى قبري.

مضى عهد الشباب وبدأت اختلف إلى الأطباء الثلاثة: العيون، وطبيب المعدة، وطبيب الأسنان، وتقاربت خطواتي فأصبح فرسخي ميلًا ،وباعي ذراعًا، ونعى الناعون إليّ كثيرًا من أصحابي وأترابي أي أنهم نعوا إليّ نفسي، ورأيت اصدقائي الذين نشأت معهم في طريقي فأنكرت استحالة حالهم، فعلمت أني أولهم وأنهم ينكرون مني ما أنكر منهم ودعا لي الداعون بالقوة والنشاط وطول البقاء، وحسن الختام، ومررت بمجامع الشبان الحافلة بالقوة والنشاط والمرح والسرور فخيّل إليّ أنني غريب عنهم لا صلة لي بهم ولا شأن لي معهم، وأنني في عالم غريب عنهم، وانتقلت من النظر في شأن مستقبلي إلى النظر في شأن مستقبل أولادي؛ لأن مستقبلي أصبح ماضيًا، وغدًا أصبح أمس لا رجعة له إلى الأبد، وسمعت كلمة (الجد) من أحفادي فلم أنكرها، ونصحني الناصحون بالاقتصاد والتدبير إبقاءً على مصلحة أولادي الفقراء، كأنهم يقولون أنت على وشك الرحيل، وهدأت نفسي بعد ثورتها وجماحها فأصبحت سمحًا كريمًا، لا أبغض أحدًا، قليل المشاكل، أتحدث عن الماضي أكثر مما أتحدث عن الحاضر، وأتذكّر أيام الشباب وأحنّ إليها.

ما أنا بآسف على الموت يوم يأتيني، فالموت غاية كل حي، ولكني أرى أمامي عالمًا مجهولًا لا أعلم ما يكون حظي منه، وأترك ورائي أطفالًا صغارًا، لا أعلم كيف

يعيشون من بعدي، ولولا ما أمي ومن ورائي ما باليت؛ أسقطتُ على الموت أم سقط علي؟!

وداعًا يا عهد الشباب، فقد ودعت بوداعك الحياة، وما لحياة، وما لحياة إلا تلك الخفقات التي يخفقها القلب في مطلع العمر، فإذا هدأت فقد هدأ كل شيء وانقضى كل شيء!

أيا عهد الشباب وكنت تندى على أفياء سرحتك السلام

العبرات

مجموعة روايات قصيرة

اليتيم:

سكن الغرفة العليا من المنزل المجاور لمنزلي من عهد قريب فتى في التاسعة عشر أو العشرين من عمره، وأحسب أنّه طالب من طلبة المدارس العليا أو الوسطى في مصر، فقد كنت أراه من نافذة غرفة مكتبي، فتى شاحبًا نحيلًا منقبضًا جالسًا إلى مصباح منير في إحدى زوايا الغرفة ينظر في كتاب أو يكتب فلم أكن أحفل بشيء من أمره، حتى عدت إلى منزلي منذ أيام بعد منتصف ليلة من ليالي الشتاء، فدخلت غرفة مكتبي لبعض الشؤون فأشرفت عليه فإذا هو جالس جلسته تلك أمام مصباحه، وقد أكبّ بوجه على دفتر منشور بين يديه على مكتبه، فظننت أنه لما ألمّ به من تعب الدرس وآلام السهر قد نام، فما رمت مكاني حتى رفع رأسه فإذا عيناه مخضلتان من البكاء، وإذا صفحة دفتره التي انكب عليها باكيًا قد جرى دمعه عليها فمحا من كلماتها ما محا، ثمّ لم يلبث أن عاد إلى نفسه فتناول قلمه ورجع إلى شأنه الذي كان فيه، فحزنت عليه وقلت لابد أنّ وراء نفس معذبة تذوب بين أضلاعه ذوبًا، فلم أزل واقفًا مكاني لا أبرحه حتى رأيته قد طوى كتابه وفارق مجلسه وأوى إلى فراشه فانصرفت إلى مخدعي، وقد مضى الليل إلّا أقله.

ثمّ لم أزل أراه بعد ذلك في كثير من الليالي إمّا باكيًا، أو مطرقًا أو ضاربًا برأسه على صدره ، أو منطويًا على نفسه في فراشه، يئن أنين الوالهة الثكلى، أو هائمًا في غرفته يذرع أرضها، حتى إذا نال الجهد سقط على كرسيه باكيًا منتحبًا، فأتوجع لبكائه وأتمنى لو استطعت أن أداخله مداخلة الصديق لصديقه وأستبثه ذات نفسه وأشركه في همّه لولا أنني كرهت أن أفاجئه بما لا يحب، حتى أشرفت عليه ليلة أمس بعد هدأة من الليل فرأيت غرفته مظلمة ساكنة، فظننت أنه خرج لبعض شأنه، ثم لم ألبث أن سمعت أنّة ضعيفة مستطيلة، فأزعجني مسمعها وخيل إلي أنّها صادرة من أعماق نفسه! كأنني أسمع رنينها في أعماق قلبي، وقلت إنّ الفتى مريض ولا يوجد بجانبه من يقوم بشأنه، فتقدمت إلى خادمي أن يتقدّمني بمصباح حتى بلغت منزله وصعدت إلى باب غرفته فأدركني من الوحشة عند دخولها ما يدرك الواقف على باب قبر يحاول أن يهبطه ليودّع ساكنه الوداع الأخير، ثمّ دخلت، ففتح عينيه عندما أحسّ بي، فاندهش لوجودي، فاقتربت منه، وأخبرته بأنّي جاره، ووجدت قد أصابته الحمى فطلبت من الخادم أن يحضر دواء الحمى من بيتي، وأعطيته، فاستفاق

وشكرني، ثمّ دعوت الطبيب له، فكشف عليه، وهمس في أذني قائلًا: إنّ عليك يا سيدي مشرف على الخطر، ولا أحسب أنّ حياته تطول إلّا إذا كان في علم الله ما لا نعلم، وكتب له الدواء، فأحضرته وقضيت بجانب المريض ليلة ليلاء أسقي الدواء مرة وأبكي عليه أخرى حتى انبثق نور الفجر، فاستفاق ورآني فقال: أنت هنا؟ قلت: نعم، وأرجو أن تكون أحسن حالًا، وسألته عن حاله وأحواله، وطلبت من الصراحة معي، فقال: هل تعدني بكتمان أمري إن قسم الله لي الحياة، وبإمضاء وصيّتي إن كانت الأخرى؟ قلت: نعم، قال: قد وثقت بوعدك، فإنّ من يحمل في صدره قلبًا شريفًا مثل قلبك، لا يكون كاذبًا ولا غادرًا.

أنا فلان بن فلان، مات أبي وتركني في السادسة من عمري فقيرًا معدمًا فكفلني عمي فكان خير من كفل، فقد أنزلني من نفسه منزلة لم ينزلها أحدًا من قبلي غير ابنته الصغيرة، وكانت في عمري أو أصغر مني قليلًا، وكأنما سره أن يرى لها بجانبها أخًا في عمري أو أصغر مني قليلًا، وكأنما سره أن يرى لها بجانبها أخًا بعد ما تمنى على الله ذلك زمنًا طويلًا، فلم يدرك أمنيته فعنى بي عنايته بها وأدخلنا المدرسة في يوم واحد فأنست بها أنس الأخ بأخته وأحببتها حبًّا شديدًا، حتى جاء يوم حجابها فلزمت خدرها واستمررت في دراستي.

ولقد عقد الود بين قلبي وقلبها عقدًا لا يحله إلا ريب المنون، ولا أعلم هل كان ما كنت أضمره لابنة عمي ودًّا وإخاءً، أو حبًّا وغرامًا، ولكنني أعلم أنّه كان بلا أمل، ولا رجاء، فما قلت لها يومًا أني أحبها لأني كنت أضن بها، ولا قدرت في نفسي يومًا من الأيام أن أصل حياتي بأسباب حياتها؛ لأني كنت أعلم أن أبويها لا يسخون بمثلها على فتى بائس فقير مثلي، ولا حاولت في ساعة من الساعات أن أتسقط منها ما يطمع في مثله المحبون المتسقطون؛ لأني أجلها عن أنزل بها تلك المنزلة، ولا فكرت يومًا أن استشف من وراء نظراتها خبيئة نفسها لأعلم أيّ المنزلتين أنزلها من قلبها، أمنزلة الأخ فأقنع منها بذلك، أم منزلة الحبيب، فاستعين بإرادتها على إرادة أبويها؟ بل كان حبي لها حب الراهب المتبتل.

ولم يزل هذا شأني وشأنها حتى نزلت بعمي نازلة المرض، فأوصى بي خيرًا عند زوجته وأن تكون لي أمًّا بعد موته، وهو يحسن الظن بها، وعندما عاجلت المنية عمي تغيرت زوجته، وأرسلت لي الخادمة تخبرني بأنها قد عزمت على تزويج ابنتها في عهد قريب، وأنّ وجودي في البيت ربما يريبها عند خطيبها، وإنها تريد أن تتخذ للزوجين مسكنًا هذا الجناح الذي تسكنه من القصر فهي تريد أن تتحول إلى منزل آخر تختاره لنفسك من بين منازلها على أن تقوم فيه بجميع شأنك، وكأنك لم تفارقها.

تماسكت قليلًا ريثما قلت لها: سأفعل إن شاء الله ولا أحب إليّ من ذلك.

فانصرفت لشأنها فخلوت بنفسي ساعة أطلقت فيها العبرات ما شاء الله حتى جاء الليل فعمدت إلى حقيبتي فأودعتها ثيابي وكتبي، وقلت في نفسي: قد حيل بيني وبين من أحب فلا آسف على شيء من بعده!

ثم انسللت من المنزل انسلالًا من حيث لا يشعر أحد بما كان، ولم أتزود من ابنة عمي قبل الرحيل غير نظرة واحدة ألقيتها عليها من خلال كلّتها وهي نائمة فكانت آخر عهدي بها.

وهكذا فارقت المنزل الذي سعدت فيها حقبة من الزمان فراق آدم جنّته وخرجت منه شريدًا طريدًا ملتاعًا قد اصطلحت على الهموم والأحزان، فراق لا لقاء بعده، وفقر لا ساد لخلته، وغربة لا أجد عليها من أحد من الناس مواسيًا، ولا معينًا!

عمدت إلى كتبي فاستبقيت منها ما لا غنى لي عنه وحملت ستائرها إلى سوق الورّاقين فعرضته هناك يومًا كاملًا، فلم أجد من يبلغ به في المساومة ربع ثمنه فعدت به حزينًا منكسرًا وما على وجه الأرض أحد أذلّ مني ولأشقى.

فلما بلغت باب المنزل ورأيت في فنائه امرأة تسأل أهل البيت عنّي، فتبيّنتها، فإذا هي الخادم التي كانت تخدمني في منزل عمي، وأخبرتني أنها لم تترك مكانًا إلا وهي تبحث عنّي، ثم انفجرتْ باكية، فراعني بكاؤها، وسألتها عن السبب، فأعطتني كتابًا مغلفًا، فتناولته منها ففضضت الكتاب فإذا هو بخط ابنة عمي فقرأت فيه ((إنك فارقتني ولم تودعني فاغتفرت لك ذلك، فأمّا اليوم وقد أصبحت على باب القبر فلا أغتفر لك ألّا تأتي لتودعني الوداع الأخير))

فألقيت الكتاب من يدي وابتدرت الباب مسرعًا فتعلقت الخادم بثوبي وقالت: أين تريد ياسيدي؟ قلت: إنها مريضة ولابد لي من المصير إليها. فصمتت لحظة ثمّ قالت بصوت خافت مرتعش: لا تفعل ياسيدي، فقد سبقك القضاء إليها.

هنالك شعرت أنّ قلبي قد فارق موضعه إلى حيث لا أعلم؛ ثمّ دارت بي الأرض دورة سقطت على أثرها في مكاني لا أشعر بشيء مما حولي فلم أفق إلا بعد حين؛ ففتحت عيني فإذا الليل قد أظللني وإذا الخادم بجانبي تبكي وتنتحب فدنوت منها وقلت: أيتها المرأة أحق ما تقولين؟ قالت: نعم، قلت: قصّي عليّ كل شيء، فأنشأت تقول: إنّ ابنة عمّك لم تنتفع بنفسها بعد رحيلك؛ فقد سألتني عن سبب رحيلك فحدثتها حديث الرسالة التي حملتها من زوجة عمك فلم تزد على أن قالت: (وماذا يكون مصير هذا

البائس المسكين! إنهم لا يعلمون من أمره وأمري شيئًا) ثم انقطع ذكرك من لسانها، وإنما كانت تكتمه في نفسها حتى مرضت، فراع أمّها أمرها فلم تدع طبيبًا ولا عائدًا إلّا فزعت إليه أمرها فما أغنى عنها شيء، وأصبحت الفتاة تدنو من القبر رويدًا رويدًا.

فبينما أنا ساهرة بجانب فراشها في ليلة من الليالي سألتني عنك وعن مكانك، وأعطتني هذه الرسالة لك.

ولمّا أصبح الصباح، خرجت أُسائل الناس عنك في كل مكان، فعدت إلى المنزل وقد مضى شطر من الليل فما بلغتُه حتى سمعتُ الناعية! فعلمت أنها قد أسلمت الروح لبارئها، وكان أكبر ما أهمني من أمرها أنّ ما كانت ترجوه في الساعة الأخيرة من ساعات حياتها أن تراك، ففاتها ذلك وسقطت دون أمنيتها، فلم أزل كاتمة أمر الرسالة في نفسي ولم أزل أتطلب السبيل إليك حتى وجدتك.

فشكرت لها صنيعها وأذنتها بالانصراف فانصرفت، فما انفردت بنفسي حتى سقطت. ثمّ لا أعلم ماذا تمّ بعد ذلك حتى رأيتك، وما وصل من حديثه إلى هذا الحد حتى زفر زفرة، خلتُ أنّ كبده قد أرفضت وأن هذه أفلاذها، فدنوت منه وقلت: ما بك يا سيّدي؟ قال: بي؟... أطلب دمعة واحدة أتفرج بها مما أنا فيه فلا أجدها... ثمّ صمت ساعة طويلة، وقال: أشعر برأسي يحترق احتراقًا وقلبي يذوب ذوبًا، لا أحسبني باقيًا على هذا، فهل تعدني أن تدفنّي معها في قبرها، وتدفن معي كتابها إن قضى الله في قضائه؟ قلت: نعم، وأسأل الله لك السلامة، قال: الآن أموت طيب النفس عن كل شيء.

ثم انتفض انتفاضة فاضت نفسه فيها.

لقد هون وجدي على هذا المسكين أني استطعت إمضاء وصيته كما أراد، فسعيت إلى دفنه مع ابنة عمه، ودفنت معه تلك الرسالة التي دعته فيها أن يوافيها فعجز عن أن يلبي نداءها حبًّا فلباها ميتًا.

الحجاب:

ذهب فلانٌ إلى أوروبا، وما ننكر من أمره شيئًا، فلبث فيها بضع سنين، ثمّ عاد وما بقي مما كنّا نعرفه منه شيء.

ذهب بوجه كوجه ليلة العذراء ليلة عرسها، وعاد بوجع كوجه الصخرة الملساء تحت الليلة الماطرة، وذهب بقلب نقي طاهر وعاد بقلب ساخط ناقم على الأرض وما فيها، وذهب وما على وجه الأرض أحبّ إليه من دينه ووطنه، وعاد وما على وجهها أصغر في عينيه منهما!

وكنت أرى هذه الصورة الغريبة التي يتراءى فيها هؤلاء الضعفاء من الفتيان العائدين من تلك الديار إلى أوطانهم، وأنّ مكان المدنية الغربية من نفوسهم مكان الوجه من المرآة؛ إذا انحرف عنها زال خياله منها فلم أشأ أن أفارق ذلك الصديق ولبسته على علاته وفاء بعهده السابق، ورجا لغده المنتظر محتملًا في سبيل ذلك من حمقه ووسواسه وفساد تصوراته وغرابة أطواره ما لا طاقة لي لمثلي باحتمال مثله، حتى جاءني ذات ليلة بداهية الدواهي ومصيبة المصائب، فكانت آخر عهدي به.

دخلت عليه فرأيته واجمًا مكتئبًا، فحييته فأومأ إليّ بالتحية إيماء، فسألته ما باله، فقال: ما زلت منذ الليلة من هذه المرأة في عناء لا أعرف السبيل إلى الخلاص منه، ولا أدري مصير أمري فيه، قلت: وأيّ امرأة تريد؟ قال: تلك التي يسميها الناس زوجتي، وأسمّيها الصخرة العاتية في طريق مطالبي وآمالي، قلت: إنّك كثير الآمال يا سيّدي؛ فعن أي آمالك تحدّث؟ قال: ليس لي في الحياة إلا أمل واحد، وهو أن أغمض عيني ثم أفتحهما فلا أرى برقعًا على وجه امرأة في هذا البلد، قلت: ذلك ما لا تملكه ولا رأي لك فيه، قال: إنّ كثيرًا من الناس يرون في الحجاب رأيي ويتمنون في أمره ما تمنى ويرون فيه أن يحول بين سعادة الأمة وارتقائها، وقد عرضت الأمر على زوجتي فأكبرته وأعظمته وخيل إليها أنني جئتها بإحدى النكبات العظام والرزايا الجسام وزعمت أنها لا تستطيع أن تبرز إلى النساء بعد ذلك حياء منهن وخجلًا.

فورد علي من حديثه ما ملأ نفسي همًّا وحزنًا ونظرت إليه نظرة الراحم الرائي.

لقد كنّا وكانت العفّة في سقاء من الحجاب موكوء فما زلتم به تثقبون في جوانبه كل يوم ثقبًا، والعفة تتسلّل منه قطرة قطرة حتى تقبض، وثمّ لم يكفكم ذلك منه حتى جئتم اليوم تريدون أن تحلّوا وكاءه حتى لا تبقى قطرة واحدة!

عاشت المرأة المصرية حقبة من الدهر هادئة مطمئنة في بيتها، راضية عن نفسها وعن عيشها، ترى السعادة كل السعادة في واجب تؤدّيه لنفسها، أو لمن له حق عليها، محافظة على شرفها، فقلتم لها إنّ هؤلاء الذين يستبدون بأمرك من أهلك ليسوا بأوفر منك عقلًا ولا أفضل رأيًا، ولا أقدر على النظر لك من نظرك لنفسك، فلا حق لهم عليك، فأزدرتْ أباها، وتمرّدت على زوجها، وأصبح البيت الذي كان بالأمس عرسًا من الأعراس الضاحكة متاحة قائمة لا تهدأ ثأرها، ولا يخبو أوارها.

وطال الحوار بيني وبينه عن الفرق بين المرأة والرجل الشرقي والمرأة والرجل الأوربي، وكيف هو حال المرأة المصرية في هذا الزمان!

إنّا نضرع إليكم باسم الشرف الوطني والحرمة الدينية أن تتركوا تلك البقية الباقية من نساء الأمة مطمئنات في بيوتهم، ولا تزعجوهن بأحلامكم وآمالكم كما أزعجتم من قبلهن، فكل جرح من جروح الأمة له دواء إلا جرح الشرف، فإن أبيتم إلا أن تفعلوا فانتظروا بأنفسكم قليلًا ريثما تنتزع الأيام من صدوركم هذه الغيرة التي ورثتموها عن آبائكم وأجدادكم لتستطيعوا أن تعيشوا في حياتكم الجديدة سعداء آمنين.

فما زاد الفتى على أن ابتسم في وجهي ابتسامة الهزء والسخرية، وقال: تلك حماقات ما جئتنا إلا لمعالجتها، فلنصطبر عليها حتى يقضيَ الله بيننا وبينها، فقلت له: لك أمرك في نفسك وفي أهلك، فاصنع بهما ما تشاء، وائذن لي أن أقول لك إنّي لا أستطيع أن الساعة التي ينفرج لي فيها جانب ستر من أستار بيتك عن وجه امرأة من أهلك تقتلني حياءً وخجلًا، ثم انصرفت، وكان هذا فراق ما بيني وبينه.

وماهي إلّا أيام قلائل حتى سمعت الناس يتحدثون أن فلانًا هتك الستر في منزله بين نسائه ورجاله، وأنّ بيته أصبح مغشيًا، فذرفت عيني دمعة لا أعلم هل هي دمعة الغيرة على العرض المذال، أو الحزن على الصديق المفقود!؟

مرّت على الحادثة ثلاثة أعوام لا أزوره فيها، ولا يزورني، ولا ألقاه في طريقه إلا قليلًا، فأحييه تحية الغريب من حيث لا يجري لما كان بيننا ذكر ثم أنطلق في سبيلي.

فإنّي لعائد إلى منزله ليلة أمس، وقد مضى الشطر الأول من الليل، إذ رأيته خارجًا من منزله يمشي مشية الذاهل الحائر وبجانبه جنديّ من جنود الشرطة كأنما هو يحرسه أو يقتاده؛ فأهمّني أمره ودنوت منه فسألته عن شأنه فقال: لا علم لي بشيء سوى أنّ هذا الجندي قد طرق بابي يدعوني إلى مخفر الشرطة،؛فهل أستطيع أن أرجوك يا صديقي بعد الذي كان بيني وبينك أن تصحبني الليلة في وجهي هذا؛ علّني

أحتاج إلى بعض المعونة فيما قد يعرض لي هناك من الشؤون؟ قلت: لا أحب إليّ من ذلك، ومشيت معه صامتًا لا أحدثه، ولا يقول لي شيئًا، ثمّ شعرت كأنّه يزور في نفسه كلامًا يريد أن يفضي به إليّ فيمنعه الخجل والحياء ففاتحته الحديث، وأخبرني أنّ زوجته ولم تعد إلى المنزل حتى هذه الساعة، وأنّه لا يعلم إلى أين ذهبت، وأنّه لا يخاف شيئًا سوى أنّ امرأته غيور حمقاء، فلعلّ بعض الناس حاول العبث بها في طريقها فشرست عليه فوقعت بينهما واقعة انتهى أمرها إلى الشرطة، وكنا قد وصلنا إلى الشرطة، فاقتادنا الجندي إلى قاعة المأمور فوقفنا بين يديه، ثمّ استدنى الشرطي الفتى إليه وقال له: يسوءني أن أقول لك ياسيدي إنّ رجال الشرطة قد عثروا الليلة في مكان من أمكنة الريبة برجل وامرأة في حال غير صالحة، فاقتادوهما إلى المخفر فزعمت المرأة أنّ لها بك صلة فدعوناك لتكشف لنا الحقيقة في أمرها.

فإن كانت صادقة أذنّا لها بالانصراف معك إكرامًا لك وإبقاء على شرفك، وإلّا فهي امرأة عاهرة فاجرة، ووهاهما وراءك فانظرهما، فالتفت وراءه فإذا المرأة زوجته وإذا الرجل أحد أصدقائه، فصرخ صرخة قوية، وسقط مغشيًا عليه، فأشرت على المأمور أن يرسل المرأة إلى منزل أبيها ففعل وأطلق سبيل صاحبها، ثم حملنا الفتى في مركبة إلى منزله، ودعونا الطبيب فقرّر أنّه مصاب بحمّى دماغية، فلبثتُ بجانبه أرثي لحاله وأنتظر قضاء الله فيه حتى رأيته يتحرك في مضجعه، ثم فتح عينيه، وطلب ألّا يدخل عليه أحد، وامتلأت عيناه بالدموع وسأل عن زوجته، فقلت: في بيت والدها، قال: فأخبروها إنّي عفوت عنها.

ومن لي بمن يخبر أهلها أنني مريض مشرف، وأنني أخشى لقاء الله إن لقيته بدمائهم، وإنني أضرع إليهم أن يصفحوا عنّي ويغتفروا زلّتي، قبل أن يسبق إليّ أجلي؟

فقد كنت أقسمت لأبيها يوم تزوجتها أن أصون عرضها صيانة لحياتي، وأن أمنعها ممّا أمنع منه نفسي، فحنثت في يميني فهل يُغفر لي ذنبي فيغفر لي الله بغفرانه!؟

نعم، إنها قتلتني! ولكنني أنا الذي وضعت في يدها الخنجر الذي أغمدته في صدري فلا يسألها أحد عن ذنبي.

وبدأ يتحدث ذاهلًا، يتذكر ما كان في الماضي بين زوجته وصاحبه، وكيف كانت تمر به الأحداث بينهما من أمامه مرور الكرام ولا ينكرها، ويصف نفسه بالغباء، وأنّ الناس تعلم عن زوجته أكثر مما يعلم، ثمّ أغمض عينيه وعاد إلى ذهوله واستغراقه.

وهنا دخلت الحجرة مرضع ولده تحمله على يدها حتى وضعته بجانب فراشه ثمّ تركته وانصرفت، فما زال الطفل يدبّ على أطرافه حتى علا صدر أبيه، فأحس به ففتح عينيه فرآه فابتسم لمرآه، وضمّه إلى صدره وأراد أن يقبّله، ثمّ انتفض فجأة ودفعه عنه بشدة، وأخذ يصيح: أبعدوه عني؛ لا أعرفه، ليس لي أولاد ولا نساء، سلو أمه عن أبيه من هو، واذهبوا به إليه؟ فسمعتْ المرضع صياح الطفل فجاءت وأخذته، ثم طلب الولد مرة أخرى وقبّله في جبينه.

وكان الجهد قد بلغ به كل مبلغ، فأرسلت وراء الطبيب فجاء وألقى عليه نظرة طويلة ثم استردّها مملوءة بأسًا وحزنًا.

ثم بدأ ينزع نزعًا شديدًا ويئن، وبدأ من حوله بالبكاء، فجاءت امرأته وتقدّمت نحوه ببطء حتى ركعت بجانبه، ثمّ أكبت على يده الموضوعة فوق صدره فقبلتها وأخذت تقول له:

لا تخرج من الدنيا وأنت مرتاب في ولدك فإنّ أمه تعترف بين يديك وأنت ذاهب إلى ربك، إنّها وإن كانت قد دنت من الجريمة ولكنها لم ترتكبها، فاعف عني يا والد ولدي، واسأل الله عندما تقف بين يديه أن يلحقني بك فلا خير لي في الحياة من بعدك! ثم انفجرت باكية.

ففتح عينيه، وألقى على وجهها نظرة باسمة كانت هي آخر عهده بالحياة وقضى.

الآن عدت من المقبر بعدما دفنت صديقي بيدي، وجلست لكتابة هذه السطور وأنا لا أكاد أملك مدامعي وزفراتي، فلا يهون وجدي عليه، إلا أنّ الأمّة كانت على باب خطر عظيم من أخطارها فتقدّم هو أمامها إلى ذلك الخطر وحده، فاقتحمته، فمات شهيدًا فنجت بهلاكه.

الهاوية:

ما أكثر أيام الحياة وما أقلها!؟

لم أعش من تلك الأعوام الطوال التي عشتها في هذا العالم إلا عامًا واحدًا مرّ بي كما يمر النجم الدهري في سماء الدنيا ليلة واحدة، ثمّ لا يراه الناس بعد ذلك.

قضيت الشطر الأول من حياتي أفتّش عن صديقي ينظر إلى أصدقائه بعين غير العين التي ينظر بها التاجر إلى سلعته، والزارع إلى ماشيته، فأعوزني ذلك حتى عرفت فلانًا منذ ثماني عشرة عامًا فعرفت امرءًا ما شئت أن أرى خلة من خلال الخير والمعروف في ثياب رجل إلا وجدتها فيه، فهو يتصف بالكمال الإنساني، فجلت مكانه عندي ونزل من نفسي منزلة لم ينزلها أحد من قبله، حتى عرض إليّ من حوادث الدهر ما أزعجني من مستقري فهجرت القاهرة إلى مسقط رأسي غير متأسف على شيء إلا على فراق ذلك الصديق، فتراسلنا حقبة من الزمن ثم فترت عنّي كتبه ثم انقطعت، فحزنت لذلك حزنًا شديدًا وذهبت بي الظنون في شأنه كل مذهب، إلا أن أرتاب في صدقه ووفائه، وكنت كلما هممت بالمسير إليه لتعرف حاله قعد بي عن ذلك همّ كان يقعدني حتى عن شأن نفسي، فلم أعد إلى القاهرة إلّا بعد أعوام، وكان أول همي يوم هبطتُ أرضها أن أراه، فذهبت إلى منزله في الساعة الأولى من الليل فرأيت ما لا تزال حسرته متصلة بقلبي حتى اليوم.

تركت هذا المنزل فردوسًا صغيرًا من فراديس الجنان تتراءى فيه السعادة في ألوانها المختلفة، ثمّ زرته اليوم، فكأنه مقبرة موحشة، فظننت أني أخطأت المكان، حتى سمعت بكاء طفل صغير ولمحت نورًا ضعيفًا، فمشيت إلى الباب فطرقته فلم يجبني أحد، ثمّ طرقته أخرى، ثمّ لم يلبث أن انفرج لي عن وجه غلام صغير في أسمال بالية يحمل في يده مصباحاً ضئيلًا، فتأملته على ضوء المصباح فرأيت في وجهه صورة أبيه فعرفت أنّه ولد صديقي، فسألته عن أبيه فأشار إليّ بالدخول، وأخبرني أنّ والده لم يعد إلى المنزل حتى الساعة وأنّه عائد عما قليل، ثمّ تركني ومضى وما لبث إلّا قليلًا حتى عاد يقول لي أنّ والدته تريد أن تحدثني حديثًا يتعلق بأبيه، فخفق قلبي خفقة الرعب والخوف وأحسست بشرٍ لا أعرف مأتاه، ثمّ التفتُّ فإذا امرأة واقفة على عتبة الباب فحيّتني فحيّيتها، ثمّ قالت لي: هل علمت ما جرى على زميلك فلان من بعدك؟ قلت: لا، فهذا أول يوم آتيه فيه بعد سبع سنوات منذ فارقته، قالت: ليتك لم تفارقه، فقد كنت عصمته التي يعتصم بها وحماه من الشر، فما هو إلا أن فارقته حتى أحاطت به زمرة الشيطان، وما زالوا به يغرونه حتى سقط في الشرّ

فسقطنا جميعًا في هذا الشقاء الذي تراه! قلت: وأيّ شرّ تريدين يا سيدتي، ومن هم الذين أحاطوا به فأسقطوه؟

ذكرت المرأة أنّ زوجها تعرّف على رفقة سوء، جعلته يشرب الخمر ويأتي برفقاء السوء إلى البيت، وأنّه من أجل ذلك باع كل ما يملك حتى الحلي التي تملكها، بل وصل الأمر إلى أنها تأخذ الصدقة من الناس حتى لا تموت من الجوع هي وأولادها.

بعد ذلك قالت: فلعلك ياسيدي أن تكون عونًا لي على هذا الرجل المسكين فتنقذه من شقائه وبلائه بما ترى له في ذلك الرأي الصالح، وأحسب أنك تقدر منه على ما عجز عنه الناس جميعًا، فإن فعلت أحسنت إليه وإلينا إحسانًا لا ننسى يدك فيه حتى الموت.

ثم حيتني ومضت لسبيلها، فسألت الغلام عن الساعة التي أستطيع أن أرى أباه فيها في المنزل، فقال: إنك تراه في الصباح قبل ذهابه إلى الديوان، فانصرفت لشأني، ثم عدت في صباح اليوم الثاني لأرى ذلك الصديق القديم الذي كنت بالأمس أسعد الناس به، فرأيت رجلًا قد لبس الهرم قبل أوانه شقيًّا منكوبًا، فكان أول ما قلت له: لقد تغيّر فيك كل شيء يا صديقي حتى صورتك!

وحدّثته كثيرًا في أمره، وما هو عليه من الشرّ والشقاء، وقلت: ليس بينك وبين النزوع إلا عزمة صادقة تعزمها فإذا أنت من الناجين، قال: إنّ العزيمة أثر من آثار الإرادة، وقد أصبحت رجلًا مغلوبًا على أمري، لا إرادة لي ولا اختيار، فدعني يا صديقي والقضاء يصنع بي ما يشاء، وابك صديقك القديم منذ اليوم إن كنت لا ترى بأسًا في البكاء على الساقطين المذنبين.

ثم انفجر باكيًا بصوت عالٍ وتركني مكاني دون أن يجيبني بكلمة وخرج هائمًا على وجهه لا أعلم أين ذهب، فانصرفت لشأني وبين جنب من الهم والكمد ما الله به عليم.

لم يستطع رئيس الديوان رفيق السوء بالأمس أن يحمل نديمه بالأمس زمنًا طويلًا؛ فأقصاه عن مجلسه ثمّ عزله عن وظيفته استنكارًا لعمله، ولم تذرف دمعة واحدة على منظر صريعه الساقط بين يديه، ولم يستطع مالك البيت الجديد أن يمهل فيه المالك القديم أكثر من بضعة شهور ثمّ طرده منه، فلجأ هو وزوجته وولداه إلى غرفة في بيت قديم في زقاق مهجور، فأصبحت لا أراه بعد ذلك إلا ذاهبًا إلى الحانة

أو عائدًا منها، فإن رأيته ذاهبًا زويت وجهي عنه، أو عائدًا دنوت منه فمسحت التراب عنه أو عن جبينه الدم ثم قدته إلى بيته.

وهكذا، مازالت الأيام والأعوام تأخذ من جسم الرجل ومن عقله، حتى عجزت تلك الزوجة المسكينة أن تجد سبيلًا إلى القوت ولداها وابنتها باكين بين يديها، فجعلتهم خادمين في البيوت يقتاتان فيها، فكانت لا تراهما إلا قليلًا، وحملت المرأة، وعندما جاءت ساعة الوضع لم يحضرها إلا جارة عجوز كانت تزورها من وقت إلى آخر، فولدت ببنت، وأصابتها حمّى النفاس، فما زال الموت يدنو منها حتى فارقت الحياة، ولا يوجد بجانبها إلا طفلتها الصغيرة عالقة بثدييها.

في هذه الساعة دخل الرجل هائجًا يطلب الشراب ويفتش عن زوجته لتأتي له بما يريد، ورآها ممددة على الحصير، ورأى ابنتها تبكي بجانبها فظنّها نائمة فدنا منها ودفع الطفلة بعيدًا عنها وأخذ يحركها تحريكًا شديدًا.

فلم يشعر بحركة، فأكب عليها يحدّق في وجهها، فرأى شبح الموت فتراجع خوفًا وذعرًا، فوطئ في تراجعه على صدر ابنته فأنّت له أنة مؤلمة لم تتحرك بعدها حركة واحدة، فصرخ صرخة شديدة، وخرج هائمًا على وجهه يعدو في الطرق ويضرب رأسه بالعم والجدران ويدفع كل ما يجد في طريقه ويصيح: ابنتي، زوجتي!هلمّوا إليّ، أدركوني حتى أعيا، فسقط على الأرض وأخذ يفحص التراب برجليه ويئن والناس من حوله آسفون عليه، لا لأنهم يعرفونه بل لأنهم قرؤوا في وجهه آيات شقائه، فكانت تلك اللحظة القصيرة التي استفاق فيها من ذهوله الطويل سببًا في ضياع ما بقي من عقله.

وما هي إلّا ساعة أو ساعتان حتى أصبح مقيدًا مغلولًا في قاعة من قاعات البيمارستان، فورحمتاه له ولزوجته الشهيدة ولطفلته الصريعة ولأولاده المشردين البؤساء.

العقاب:

رأيت فيما يرى النائم في ليلة من ليالي الصيف الماضي كأني هبطت من مدينة كبرى، لا علم لي باسمها ولا بموقعها من البلاد ولا بالعصر الذي يعيش أهلها فيه، فمشيت في طرقها بضع ساعات، فرأيت أجناسًا من البشر لا عداد لهم، ينطقون بأنواع من اللغات لا حصر لها، فخيّل إلى أنّ الدنيا قد استحالت إلى مدينة وأنّ الذي أراه بين يدي إنما هو العالم بأجمعه من أدناه إلى أقصاه، فلم أزل أتنقل من مكان إلى مكان وأداول بين الحركة والسكون حتى انتهى بي المسير إلى بنية عظيمة، وقد ازدحم الناس على بابها خلق كثير من الناس، ومشى من في أفنيتها وأبهائها طوائف من الجند يخطرون بسيوفهم وحمائلهم جيئة وذهوبًا، فسألت بعض الواقفين: ما هذه البنية، وما هذا الجمع المحتشد على بابها؟ فعلمت أنها قصر الأمير وأنّ اليوم يوم القضاء بين الناس والفصل في خصوماتهم، وما هي إلا ساعة حتى نادى منادٍ في الناس: أن قد اجتمع مجلس القضاء فاشهدوه، فدخل الناس ودخلت على أثرهم، وجلست حيث انتهى بي المجلس، فرأيت الأمير جالسًا على كرسيّ من الذهب يتلألأ في وسط الفناء، وقد جلس على يمينه كاهن الدير، وعلى يساره قاضي المدينة، ورأيته ينظر في ورقة بيضاء بين يديه فأكبّ عليها ساعة ثمّ رفع رأسه وقال: ليؤت بالمجرمين، ففتح باب السجن وكان على يسار الفناء فتكشف عن مثل خلق الليث منظرًا وزئيرًا وخرج منه الأعوان يقتادون شيخًا هرمًا، تكاد تسلمه قوائمه ضعفًا ووهنًا، فسأل الأمير: ما جريمته؟ فقال الكاهن: إنّه لص دخل الدير، فسرق منه غرارة من غرائر الدقيق المحبوسة على الفقراء والمساكين. فضجّ الناس وصاحوا: ويل للمجرم من الأثيم، أيسرق مال الله في بيت الله؟ ثم نودي بالشهود. فشهد عليه رهبان الدين، فتسار الأمير مع الكاهن هنيهة ثم صاح: يقاد المجرم إلى ساحة الموت فتقطع يمناه ثم يسراه ثم بقية أطرافه، ثم يقطع رأسه، ويقطع طعامًا للطير الغادي والوحوش، فجثا الشيخ ومدّ يده يسترحم الأمير، فضرب الأعوان على فمه واحتملوه إلى محبسه.

ثمّ عادوا وبين أيديهم فتى في الثامنة عشرة من عمره، أصفر نحيل يضطرب بين أيديهم خوفًا وفرقًا حتى وقفوا به بين يدي الأمير، فسأل: ما جريمته؟ فقال: إنه قاتل، ذهب أحد قواد الأمير إلى قريته لجمع الضرائب، فطالبه بأداء ما عليه من المال فأبى وتوقح في إبائه، فانتهره القائد فاحتدم غيظًا وجرّد سيفه من غمده وضربه به ضربة ذهبت بحياته، فصاح الناس باللفظاعة والهول، إنّ من يقتل نائب الأمير فكأنما قتل الأمير نفسه، ثمّ جيء بأعوان القائد المقتول، فأدبوا شهادتهم، فأطرق الأمير لحظة، ثمّ رفع رأسه وقال: يقاد إلى ساحة الموت فيصلب على شجرة، ثمّ تفصد عروقه

كلها، حتى لا يبقى في جسمه قطرة واحدة من الدم، فصرخ الغلام صرخة، حال الأعوان بينه وبين إتمامها واحتملوه إلى السجن.

وما لبثوا أن عادوا بفتاة جميلة، فقال الأمير: ما جريمتها؟ فقال القاضي: إنها امرأة زانية، دخل عليها رجل من أهلها فوجدها خالية بفتى غريب كان يحبها ويطمع في الزواج منها قبل اليوم، فهاج الناس واحتدموا وهتفوا: القتل القتل... الرجم الرجم!! إنها الجريمة العظمى والخيانة الكبرى. فقال الأمير: أين شاهدها؟ فدخل قريبها الذي كشف أمرها فشهد عليها. فهمس القاضي في أذن الأمير ساعة، ثم قال الأمير: تؤخذ الفتاة إلى ساحة الموت فترجم عارية حتى لا يبقى على لحمها قطعة جلد ولا على عظمها قطعة لحم، فهلّل الناس وكبّروا إعجابًا بعدل الأمير وحزمه، وهتفوا له ولكاهنه وقاضيه بالدعاء، ثمّ نهض فنهض الناس بنهوضه ومضوا لسبيلهم فرحين مغتبطين، وخرجت على أثرهم حزينًا أفكر في هذه المحاكمة الغريبة التي لم يسمع فيها دفاع المتهمين عن أنفسهم، ولم يشهد على المتهمين غير خصومهم، ولم تقدر فيها العقوبات على مقدار الجرائم! وأعجب للناس في ضعفهم أمام القوة القاهرة وغلوهم في تقديسها، وثقتهم بها، والنزول على حكمها عدلًا كان أو ظلمًا، رحمة أو قسوة.

وما زلت أحدّث نفسي حتى أقبل الليل فمررت بساحة مظلمة موحشة تتطاير في جوها أسراب من الطير غادية رائحة، فاخترقتها حتى بلغت أبعد بقاعها، فرأيت منظرًا هائلًا لا يزال أثره عالقًا بنفسي حتى الساعة.

رأيت الشيخ جثة معفّرة بالتراب لا رأس ولا أطراف، ثمّ رأيت أطرافه مبعثرة حوله، ورأيت الفتى مشدودًا إلى شجرة، وقد سال جميع ما في عروقه من الدم حتى أصبح شبحًا، ورأيت الفتاة كتلة من اللحم لا يستبين لها رأس، ولا قدم، وقد أحاطت به أكوام الحجارة المخضبة بدمائها، فغبت عن الوعي وسقطت مكاني، فلم استفق حتى ذهب معظم الليل ففتحت عيني فإذا عجوز، تتصفح وجوه القتلى حتى بلغت مصرع الشيخ فجثت بجانبه وبكت، ثم احتفرت له حفرة تحت ساق الشجرة فدفنته فيها وقامت على قبره تودعه، فابتدرتها بقولي: لا تراعي يا سيدتي فإنني رجل غريب عن هذا البلد لا أعرف من شأنه، ولا من شأن أهله شيئًا وقد رأيت الساعة موقفك على هذا القبر، فبكيت لبكائك وتمنيت لو حدّثتني عن همك، فاستعبرت باكية وحدّثته عن حالها وحال أولادها من الشقاء والبؤس والحاجة، فاشتكى أطفالي يومًا الجوع فقلت للشيخ: إنّ في دير المدينة كما يزعمون مالًا للصدقات يتولّى الكاهن الأعظم إنفاقه على الفقراء والمساكين، فلو ذهبت إليه وكشفت له خلتك وسألته أن يمنحك

علالة تستعين بها على أمرك لرجونا أن نطفئ لوعة الأطفال المساكين، فذهب كما قلت له إلى الدير وشكى للكاهن ما بنا، فاستقبله الكاهن بأقبح استقبال، وقال له: إنّ الدير لا يحسن إلا إلى الذين أسلفوه الإحسان من قبل، وما كنتَ في يوم من أيام رغدك من المحسنين إليه، فاذهب لشأنك فأبواب العيش واسعة بين يديك، فإن ضاقت بك فأبواب الجرائم أوسع منها، فخرج من عنده مكتئبًا حزينًا، ولمح في ساحة الدير غرارة دقيق فحدثته نفسه بها، وما كانت تحدّثه نفسه بها لولا العَوَز والفاقة، ثم أدركه الحياء فأغضى عنها، وتذكر كلام الكاهن له بارتكاب الجرائم في سبيل العيش، ثمّ مشى إليها فاحتملها على ظهره ومشى بها مترنحًا، فما تجاوز عتبة الدير حتى أثقله الحمل، فسقط مغشيًا عليه ورأوه العسس ورأوا الغرارة بجانبه، وكان رهبان الدير قد فقدوا الغرارة ويبحثون عنها، حتى التقوا بالعسس حول مصرع الشيخ؛ فعرفوا ضالتهم، وما هي إلا ساعة حتى كانت الغرارة في الدير وكان الشيخ في السجن، ثمّ كان بعد ذلك ما رأيت من أمره، فواأسفاه عليه لقد مات شهيدًا مظلومًا، وارحمتاه لي ولأطفالي البؤساء المساكين من بعده!

ثمّ رجعت المرأة، فإذا شخص آخر ما زال يتقدم نحوي متسللًا، يختلس خطواته اختلاسًا، فاختبأت وراء الشجرة لأرى ما هو صانع، فإذا فتاة جميلة باكية، فدارت بعينيها لحظة حتى وقع نظرها على جثة الفتى المصلوب بين أعواد الشجرة فمشت إليه ومدت يدها إلى الحبل المشدود به فعالجت عقدته حتى انحلت، ثمّ احتملته على يدها وأضجعته على الأرض، ووقفت بجانبه ساعة تنظر إليه جامدة ساكنة كأنها غير آبهة ولا حافلة ثم هتفت صارخة: واشقيقاه!وسقطت فوقه تضمّه وتقبّله وتبكيه، حتى نال منها الجهد فترنّحت قليلًا، ثمّ هوت بجانبه، فأهمّني أمرها وخفت أن يكون لحق بها مكروه، فمشيت إليها حتى صرت بجانبها، فشعرت بأنفاسها الضعيفة تتردد في صدرها، فعلمت أنّها حيّة، فجلست فوق رأسها أندبها وأدعو الله حتى استفاقت، فرأتني بجانبها فنظرت إليّ نظرة حائرة، ثمّ تقدّمتْ نحوي وقالت: على من تبكي أيّها الرجل الغريب؟ قلت: أبكي عليك يا سيدتي وعلى فقيدك البائس المسكين، قالت: نعم، إنّه كذلك فقد كان زينة الشباب، ولقد ظلموه إذ قتلوه فما كان قاتلًا ولا مجرمًا، ولكنّه رجل رأى عرضه فريسة في يد من يريد تمزيقه فقطع تلك اليد وانتقم لنفسه وشرفه، لو أنصفوه لاستبقوه رحمة به وبشبابه، فما أجرم من ذادَ عن عرضه ولا أثمَ من قتل قاتله، قلت هل لك أن تقصّي عليّ قصتك؟ قالت: نعم، نزل قريتنا صباح يوم من الأيام قائد من قواد الأمير الذين يطوفون البلاد لجمع الضرائب فمرّ بأبيات القرية بيتًا بيتًا حتى بلغ منزلنا وكنت واقفة على بابه فنظر إليّ نظرة مريبة طار لها قلبي رعبًا وفرقًا، ثمّ سألني عن أخي فأرشدته إلى مكانه فسأله عن المال فأستنساه إياه أيامًا قلائل حتى يبيع

غلّاه فأبى إلا أن ينقده الساعة أو يأخذني رهينة عنده إلى يوم الوفاء، وغمز بي إلى بعض أعوانه فداروا حولي وكنت أسمع قبل اليوم حديث أولئك الفتيات الشقيات اللواتي يدخلن رهائن في قصر الأمير فلا يخرجن منه إلا ساقطات أو محمولات، ففزعت إلى أخي ولصقت به، فوقف بيني وبين الرجل، وقال له لا شأن لك مع الفتاة إنما أنا صاحب المال وأنا المأخوذ به من دون الناس جميعًا؛ فإن كان لابد لك من رهينة فأنا رهينة مالي حتى يصل إليك، فقال له لابدّ لي من المال أو الرهينة ولابدّ أن تكون الرهينة كما أريد، فإن أبيتَ فحياتك فداء عنها، فغضب أخي غضبة انتفض لها، ثمّ جرّد سيفه وضربه ضربة طارت برأسه ووقف في مكانه لا يبرحه وسيفه يقطر دمًا حتى غلّه الأعوان واحتملوه إلى السجن، فتلك حياته يا سيدي وذاك مماته، فلئن بكيته أنا أبكي فتى الفتيان همّة ونجدة، ونادرة الرجال عزة وإباء وأفضل الأخوّة رحمة وحنانًا. فطلبت مني مساعدتها في دفن أخيها، فحفرت له بجانب الشيخ ودفنته، فشكرتني ومضت لسبيلها.

فأتبعتها نظري حتى اختفت آخر طيّة من طيّات ردائها، فعدت إلى نفسي، فإذا جثة الفتاة المرجومة لا تزال مكانها، فهاجني منظرها وقلت في نفسي: إنني لا أدخر لنفسي عملًا أرجو فيه رحمة الله وإحسانه يوم جزائه، أفضل من مواراة هذه المسكينة التراب، فاحتفرت لها حفرة بجانب حفرة الشهيدين، ثمّ ألقيت عليها ردائي واحتملتها على يدي حتى أضجعتها في حفرتها، فإني لأجثو عليها التراب إذ شعرت بحركة ورائي، فالتفتُّ، فإذا فتى يافع متلفع ببردة سوداء لا يستبين منها غير بياض وجه، فابتدرني بقوله: من صاحب هذا القبر الذي تجثو عليه التراب؟ قلت: فتاة مرجومة، رأيت جثتها الساعة منبوذة في العراء فرحمت مصرعها واحتفرت لها هذا القبّ الذي تراه، فقال: إنّ لي يا سيدي مع هذه الفتاة شأنًا، فهل تأذن لي أن أودّعها الوداع الأخير قبل أن يحول التراب بيني وبينها؟قلت: نعم، شأنك وما تريد، وتنحيت قليلًا؛ فدنا من القبر وجثا فوق تربته وظلّ يناجي الدفينة حتى اشتفت نفسه، فقام إلى التراب يهيله عليها حتى وراءها، ثم التفت إليّ وقال: لقد شكر الله لك ياسيدي هذه اليد التي أسديتها إلى هذه الفتاة المظلومة بستر ما كشف الناس عن عورتها، وحفظ ما أضاعوا من حرمتها، فجزاك الله خيرًا بما فعلت، وأراد الرجوع فاستوقفته وقلت له: وهل ماتت هذه الفتاة مظلومة كما تقول؟ فانفجرت شفتاه عن ابتسامة مرّة ونظر إليّ نظرة هادئة مطمئنّة وقال: نعم يا سيدي ؟ ولولا ذلك ما رأيتني على قبرها أندبها.

أنا الرجل الذي اتهموها به، وأستطيع أن أقول لك كما أقول لربي يوم أقف بين يديه رافعًا إليه ظلامتها: إنها بريئة مما رموها به، وإنها أطهر من الزهرة المطلولة، وأنقى من القطرة الصافية!

لقد أحببت هذه الفتاة منذ كانت طفلة، وأحبتني، فتعاقدنا على الوفاء والإخلاص، ثمّ خطبتها إلى أبيها فأخطبني راضيًا مسرورًا، وبعدها توفى والدها، فعلمنا أنّ لابدَ لنا من الانتظار عامًا كاملًا، ففعلنا حتى إذا انقضى العام أو كاد، حدث أن ذهبت الفتاة إلى قاضي المدينة في أمر يتعلق بميراثها فرآها القاضي فتبعتها نفسه فأرسل وراء عمها، وكان ولي أمرها بعد أبيها، وهو رجل من الطامعين المداهنين، فعرض عليه رغبته في الزواج من ابنة أخيه ففرح، ولم يتردد في إجابة طلبه، وعاد إلى الفتاة يحمل إليها البشرى، ورفضت طلب القاضي ولكنّ عمها قال ستتزوجين ممن أريد طائعة أو كارهة فلا خيار لك، وما هي إلا أيام قلائل حتى أعدّوا لها عدة الزواج وسمّوا يومًا لزفافها، فما غربت شمس ذلك اليوم حتى جمعت ما كان لها في بيتها من ثياب وحلية، وخرجت تحت ستار الليل لا تعلم أين تذهب، وكان عمّها قد رفع للقاضي؛ فبثّ عليها عيونه وأرصاده يطلبونها في كل مكان، حتى لمحها بعضهم جالسة تحت بعض الجدران فأقبل عليها فذعرت لمرآه وتركت حقيبتها وفرّت بين يديه تعدو عدوًا سريعًا، وكنت عائدًا في تلك الساعة إلى منزلي، فرأتني فألقت نفسها عليّ وقالت: إنهم يتبعونني، وإنهم إن ظفروا بي قتلوني، فارحمني يرحمك الله، فأهمني أمرها وذهبت بها إلى منزلي وأخفيتها في بعض حجراته. وما هي إلا ساعة حتى دخل عمها ووراءه أعوان القاضي يطلبها، فأنكرت رؤيتها فلم يصدقني، وأخذ يضرب أبواب الحجرات بابًا بابًا حتى ظفر بها، فصاح: ها هي الفتاة الزانية، وهذا صاحبها، فأقسمتُ له أنها بريئة مما يرميها به فلم يصغ إليّ، وأمر الأعوان فاحتملوها، وحاولت أن أحول بينهم وبينها فضربني أحدهم على رأسي ضربة فسقطت مغشيًا علي، فلم أستفق إلا بعد ساعة، فوجدت الحمّى قد أخذت مأخذها من جسمي، فلزمت فراشي بضعة أيام لا أفيق ساعة حتى يتمثل لي ذلك المنظر الذي رأيته فأشعر بالرعدة فأعود إلى ذهولي واستغراقي حتى أدركتني رحمة الله واستطعت الخروج من منزلي فعلمت ما تمّ لها فجئت كما تراني أودعها الوداع الأخير وأواري جثتها التراب، وما أنا بالسالي عنها، ولا بالذائق حلاوة العيش من بعدها حتى ألحق بها!

ثم ألقى على قبرها نظرة جمعت في طيّاتها جميع معاني النظرات البائسات من حزن وبأس ولوعة وشقاء ومضى لسبيله.

ها هم الناس جميعًا قد أصبحوا أعوانًا للأمراء على شهواتهم، والقضاة على ظلمهم، وزعماء الأديان على لصوصيتهم، فلتسقط عليهم جميعًا نقمة الله ملوكًا ومملوكين ورؤساء ومرؤوسين.

في الختام:

قد تكون وجدت ضالتك في هذا الكتاب، فكرة كانت أو معلومة قد سرقت لُبّ قلبك، ورُبما اقتبست منه نورًا يشعّ بك، فهل تُشارك الآخرين هذا النور عبر حسابنا فنُضيء جميًعا!؟

نبذة عن الكتاب

مجموعة من المقالات الاجتماعية والسياسية والدينية، حرص «المنفلوطي» من خلالها على معالجة شئون المجتمع. فعلى الصعيد الاجتماعي — الذي استأثر بالقسم الأكبر من كتاباته — دعى للإصلاح، والتهذيب الخلقي، والتحلِّي بالفضائل، والذود عن الدين والوطن، ونادى بضرورة التحرر من الخرافات والجهل والخمول والكسل. كما خصَّ المرأة بمقالتين؛ أكد فيهما على مكانتها وأهمية دورها في الحياة. وفي المجال الديني؛ رثى لبُعد المسلمين عن دينهم، وعزا ضعفهم إلى البعد عنه.

كود الموقع:

الايميل: rawafed.communicate@gmail.com

@rawafed_k

@rawafed_k

@rawafed-k